أُنثَى طَائِرْ الفِيْنِيْقْ

في ذكرى رحيلها الفاجع
الكاتبة الراحلة
منال حمد النيل الفحل

أحمد ضحية

رفيقي للطباعة والنشر
Rafiki for Printing & Publishing
2020

أُنثى طائر الفِينِيق

أحمد ضحية

رفيقي للطباعة و النشر

اطلع برة A (سوق رجال مافي) عمارة رفيقي جوبا -
جمهورية جنوب السودان
موبايل 211912230704+
2499116721952+
rafiki.com11@gmail.com
Www.rafikigroup.com

حقوق الطبع محفوظة

2020

الترقيم الدولي: 978-977-6829-05-3
رقم الإيداع: 2020/13355

الإخراج الفني والغلاف:

معمر مكي عمر

في ذكرى رحيلها الفاجع
الكاتبة الراحلة
منال حمد النيل الفحل

الفهرس

١ - إهداء ٥
٢ -حول هذا الكتاب ٩
٣ - عن زوجتي منال أحكي ١٣
٤ - منال حمد النيل الفحل القاصة..... ٢٢
٥ - قصص قصيرة جدًا ٢٤
٦ - قصص قصيرة ٢٨
٧ - نماذج قصصية:
مدينة بوح ٤١
تفاؤل ٤١
هزيمة ٤٢
حب ٤٢
انحناء ٤٢
امرأة لفكرة أخرى ٤٣
وحين أحبت ٤٣
كان هناك في وجوه المارة ٤٣
رحيل ٤٤
غربة ٤٤

قبلك كان ٥٣
راية بيضاء ٥٤
نمت آمنة ٥٤
حبيبات مطر ٥٥
٨ - منال الناقدة ٦٤
المرأة والإبداع ٦٤
نموذج (١) صوت شمالي: مها الرشيد..... ٦٨
نموذج (٢) صوت جنوبي: اغنيس لوكودو... ٧١
٩ - منال الباحثة الحقوقية..... ٧٤
عرض لمخطوط كتاب أ/ أحمد ضحية: ٧٤
دارفور-التطهير العرقي والتهجير القسري...
الاغتصاب والعنف الجنسي سلاحًا في ٨١
الحرب-دارفور نموذجًا.....
المرأة والإسلام السياسي ٩٠
المرأة والقهر الاجتماعي ٩٤
١٠- خاتمة ٩٩

إلى روحها، حيث حلتْ
في مقامِها البَديعْ، بِسَلامْ!

أُنثَى طائِرِ الفِينِيقْ

(١)

حول هذا الكتاب

هذا الكتاب، لهو كتاب مختلف عما هو سائد، من كتب «إحياء الذكرى»، فهو عبارة عن (ملف) يلقي الضوء، على (بعض) المناطق والاهتمامات، في حياة القاصة الراحلة المقيمة منال حمد النيل أحمد (الفحل) عبد السلام.. عل ما سنورده هنا، يعين من يأتي لتتبع سيرتها، في سياق المجرى العام، لمسيرة المرأة السودانية المبدعة.

كنت قد خططت لإصدار كتاب عنها، منذ الذكرى الأولى لرحيلها ختام العام ٢٠١٤، ولكن لعوامل عديدة تضافرت وقتها، لم أتمكن من إنجاز هذا الأمر.

وظلت الفكرة، في قاع الذاكرة، تراوغني من آن لآخر، إلى أن دفعتها الصديقة، المبدعة الجميلة، متعددة المواهب والإمكانات، دكتورة إشراقة مصطفى حامد، للطفو على سطح الذاكرة، والتشبث بشطآن خلجانها، ربما منذ ما يزيد على العام قليلًا. فلها مني كل الود والمحبة.

وأحب أن أشير هنا، إلى أن هذا الملف، قد أعد على هذا النحو

تحديدًا، لتعين مخطوطته (ابتداء) دكتورة إشراقة مصطفى حامد، على ما هي بصدده، من دراسة. كإسهام متواضع مني، في إحياء ذكرى المبدعة الراحلة منال حمد النيل.

هذا الكتاب عبارة، عن كتابات منال التي بحوزتي، في القصة القصيرة جدا، والقصة القصيرة، إلى جانب محاولات قليلة، في النقد النظري والبحث الحقوقي، وهي بطبيعة الحال ليست كل كتابات منال، بل تمثل جزءًا يسيرًا جدًا في مسيرتها، منذ النصف الثاني، من ثمانينيات القرن الماضى.

فمنال عضو مؤسس لرابطة الأصدقاء الأدبية بكوستي، منذ صباها الباكر ١٩٨٦. وغني عن القول، إن هذا الكيان الأدبي بكوستي، قد خرج الكثير من المبدعين المميزين، الذين تعج بهم الآن الساحة الثقافية للسودان الكبير.

كتبت الراحلة منال، الكثير من النثر والخواطر، التي طورتها فيما بعد، إلى قصص قصيرة. ولكن كل كتاباتها منذ العام ١٩٨٦، وحتى العام ٢٠٠٣، ليست بحوزتي! فهي بين أغراضها بالمنزل الذي تملكه، في مرابيع الشريف، والذي تنازلت عن نصيبي فيه لأسرتها، بُعيْد وفاتها بأشهر قليلة.

لذا انحصر جهدي في تجميع مواد هذا الكتاب، فيما توفر بحوزتي فقط، والذي – أيضًا – لم أعثر على جزء منه، بسبب تنقلي وترحالي

المستمر، بعيد رحيلها، من أقصى جنوب الولايات المتحدة، إلى أقصى شمالها، ومن أقصى شرقها إلى أقصى غربها!

ففي هذه المساحة الواسعة للقارة الأمريكية، مع التنقل المستمر والرحيل، تضيع أشياء وتسقط أشياء وتفقد أشياء!

استهللت هذا الكتاب فيما يشبه المقدمة، لإلقاء الضوء على علاقتنا كعاشقيْن وكزوجيْن، وما عانته من أمراض أدت بالنهاية الفاجعة لحياتها في هذا العالم الكئيب!

وصحيح أنني احتفظت، في هذا السياق، لنفسي، بكثيرٍ من التفاصيل، التي لم أرَ ثمة أهمية، أو ضرورة ملحة لذكرها، التي بإمكان القارئ الحصيف، تحسسها وإدراكها والإحساس بها والتفاعل معها، كأنها مكتوبة، وهي بالفعل مكتوبة خلف السطور، مثل لوحة سرية لدافنشي، تخبئ خلف خطوطها من الأسرار، أكثر مما تفصح عنه وتصرح به!

وفي الحقيقة من يقرأ كتاباتي السردية؛ التي كتبتها في الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٣ يستطيع أن يكتشف الإلهام الكبير، الذي مثلته حياتنا المشتركة كحبيبين وكزوجين، في كثير من الوقائع والأحداث والتفاصيل. إذ كانت حياتنا معًا مصدرًا عظيمًا من مصادر الإلهام السردي لكلينا!

في السرد كانت منال تستلهم حياتها وتجربتها الذاتية، هذه التجربة، التي انعكست أيضًا، على طبيعة اختياراتها لموضوعاتها، في النقد

والبحث الحقوقي، إذ كانت معاناة المرأة، وقضاياها مصدر اهتمامها الأساسي.

وأقولُ بكلِّ صدقٍ وتجرُّدٍ، إن القاصة الراحلة منال، لو تفرغت للكتابة الإبداعية أو البحثية، لكانت من أهم الكاتبات، والباحثات السودانيات، اللائي بإمكانهن إحداث فرقٍ كبيرٍ، في المجرى العام لتجربة المرأة المبدعة والباحثة.

ولكن منذ العام ٢٠٠٦ كفت منال تمامًا عن القراءات المتنوعة والكتابة، بل ولم يعد اهتمامها منصبًا سوى على دراسات وأبحاث تنمية القدرات، التي وجهت كل اهتمامها إليها، والتي أخذت تتجمع وتتراكم، بصورة جنونية على ارفف مكتبتنا المشتركة، تطلبها من أمازون ومن جرير، باللغتين العربية والإنجليزية!

هذا الجهد المتواضع، آمل أن يكون خطوة، في سبيل الإحياء المستمر لذكراها، التي لا شك ستكون خالدة.

أحمد ضحية

فيلادلفيا، بنسلفينيا

مايو ٢٠٢٠

(٢)

عن زوجتي أحكي

لست كابن حزم أعرف النساء، ولا ممن يزعمون معرفة النساء، فخبرتي بالنساء ضئيلة، إذ يكفي أنني لم أعش في عالم الرجل والمرأة وهما معًا، إلا بعد أن تزوجت منال. ولذلك أزعم أن معرفتي الحقيقية بالنساء، كانت من خلالها وحدها! فقد بدأت معرفتي الفعلية بالمرأة بزواجي منها! لكن كيف بدأت حكايتنا، وكيف لم تنتهِ؟!

في النصف الأخير من ثمانينيات القرن الماضي، التقيت الفتاة النحيلة، الشاحبة، منال حمد النيل، في واحدة من فعاليات رابطة الأصدقاء الأدبية بكوستي.

لفتت انتباهي، بتصفيفة شعرها المميزة - وقتها - التي لازمتها، بعد ذلك إلى أن فارقت دنيانا الفانية، بمستشفى (جون هوبكنز- مدينة بالتيمور؛ ولاية ميريلاند بالولايات المتحدة الأمريكية). حدث ذلك منتصف شتاء العام ٢٠١٣ (منتصف ليلة ٢٩ ديسمبر).

كانت منال، رغم شراستها، من أرق وأجمل النساء، وأكثرهن أناقة

وعذوبة وتمدينا. ولم أكن وقتها أعلم أن هذه الفتاة المتمردة، التي لا تكترث لشيء في سبيل قناعاتها، والتي سكنتني حتى النخاع، ستكون زوجتي ذات يوم، وهو ما حدث بعد مرور ثمانية عشر عامًا، على ذلك اللقاء العابر، الأول!

ودارت عجلة الزمن..

وفي هذا الوقت، كانت مقيمة بالمملكة العربية السعودية، تعمل كمربية للأمير الطفل، عبد العزيز حفيد الملك سلمان، وكنا قد التقينا في السودان للمرة الثانية بعد سنوات طويلة، في إجازتها السنوية في العام ٢٠٠٢ قبيل مغادرتي السودان إلى القاهرة بقليل. فقضينا أوقاتًا جميلةً ممتعةً معًا.

وفي بداية العام ٢٠٠٤ وأنا على وشك مغادرة القاهرة إلى دولة إعادة التوطين State of Resettlement استعدنا تواصلنا، عبر كل أدوات التواصل، بدءًا بخطابات البريد، التي تحمل آثار بصماتي وعرقي، ورائحة عطرها، مرورًا بالإيميلات بكلماتها الرقمية المعلبة، والتلفونات التي تتردد أصداء سريانها هامسة!

وشاءت الأقدار أن تنزل بصحبة الأمير الصغير وأسرته، إلى القاهرة، في شتاء ٢٠٠٤، كمحطة ضمن سلسلة من السفريات شملت باريس، عمان، بيروت، وانتهت إلى القاهرة، فالتقينا، وقد جسدت هذا اللقاء في إحدى قصصي القصيرة، التي نشرتها في الحوار المتمدن وقتها!

كانت الغربة الطويلة قد أنهكتها، وتكاد تصيبها بالجنون! وهكذا، تمخض هذا اللقاء، عن اتفاقنا على أن تعود إلى المملكة، وتوفق أوضاعها للمغادرة النهائية. إلى الخرطوم، ليتم الزواج فتلحق بي!

وكنت وقتها بين خيارين: مغادرة القاهرة وحدي وإحضار زوجتي لاحقًا، بعد أن يستقر بي المقام في دولة التوطين، أو تأجيل إجراءات إعادة التوطين، وانتظارها لإضافتها والسفر سويًا!

ومن ثم قررت التقدم بطلب تأجيل إجراءات التوطين.. وجاءت منال عروسًا، تحف بها فراشات الأحلام.. تركت عالمها الهادئ، المنظم، المرفه، المستقر وجاءت.. تركت كل شيء، كل شيء، وجاءت إليَّ حبيبة وصديقة وزوجة، وانطلقنا معًا نحاول رسم خريطة مفعمة بالأحلام الوردية!

رغم التغيير الكبير لحياتها، التي ألفتها لعقد من الزمان، واختيارها أن تعيش معي حياتي، التي لا تخلو من معاناة، إلا أنها لم تكن تميل للشكوى، رغم كل ما مررنا به معًا، من منعطفات حادة، ونحن نحمل حقائبنا لمكان انتقالي (الأحياء الشعبية الفقيرة بالقاهرة) بكل ضنكها ورهقها وثقافتها البدائية المزعجة. إلى أن استقر بنا المقام أخيرًا في (جيرسي سيتي - ولاية نيوجيرسي - الولايات المتحدة الأمريكية)، في بداية خواتيم الصيف الأميركي (٢٠٠٦/٩/١٨) ومن ثم انتقلنا بعد عام من مقامنا في (ولاية نيوجيرزي)، حيث تمت إعادة توطيننا، ودمجنا

في السيستم، إلى (ولاية ميريلاند) للدراسة في جامعتها.

ولم يكن ممكنًا أن نبدأ الدراسة معًا، فالسيستم قاسٍ جدًا، والفواتير عالية، وكذلك التزامات السودان، وهكذا تفرغت للعمل، وبدأت منال في العام ٢٠٠٨ الدراسة في جامعة ميريلاند، للحصول على درجة البكالوريوس من كلية الاقتصاد والإدارة، في تخصص Hoteles and Restaurants management وبرزت في مجالها الأكاديمي بدءًا من السميستر الأول، إلى أن تخرجت في العام ٢٠١١ ولم تلبث أن تم تعيينها مشرفةً من (مكتبها في سالسبري، ميريلاند) على أغذية تلامذة المدارس الحكومية، في منطقة واسعة، تشمل جزءًا من مدارس ولايات: (فيرجينيا، ميريلاند وديلاور– Eastern shore area) لكن لم تلبث أن أصيبت بمرض النيمونيا Pneumonia Disease في العام ٢٠١٢ الذي تزامن معه استفحال الرطوبة المزمنة Moisture Chronic Disease في كل أعضاء جسمها، مع الضعف التام لجهازها المناعي Immune System بسبب أدوية معادلة الرحم، حتى لا يلفظ (الأجنة) عندما تحمل!

فقد كانت رغبتها في الإنجاب جنونية، رغم أنها مرت بتجربة قاسية من (الإجهاضات Abortions) المستمرة منذ ٢٠٠٤ نتيجة خلل جيني في الجهاز المناعي، الذي كان ينتج أجسامًا مضادة Anti Bodies للأجنة، باعتبارها أجسامًا غريبة فيلفظها.

فشلت محاولات العلاج في القاهرة، فحاولنا مجددًا في أميركا، وكررنا المحاولة في بريطانيا. ولكن كل ذلك لم يجدِ، وتكررت الإجهاضات بصورة مخيفة!

في ذلك العام ٢٠١٢ شفيت منال من النيمونيا، وعادت قادرة على الحركة، ولكن سرعان ما أصيبت في العام ٢٠١٣ بالنيمونيا مرة أخرى، ولكنها لم تستطع الصمود هذه المرة، ففارق جسدها الملائكي الحياة، مبتسمًا ووديعًا، ووادعًا.. لتتركني وحدي، نهبًا للأحزان والذكريات، والطيوف، التي لم تفارقني لحظة، ولا أظنها ستفارقني يومًا!

فمنال لم تكن مجرد زوجة عادية، أو أنثى مميزة مشتهاة، بكل ما تحمل الكلمة من المعنى لرجل، فقد كانت أكثر من ذلك بكثير.. كانت أمًا وأختًا وصديقة..

كانت منال حتى الرمق الأخير، ذات جمال خاص.. هو الجمال نفسه الذي صحبني، ونحن نسير معًا في شوارع الإسكندرية أو مكتبتها، أو القاهرة وأتيلياتها ومنتدياتها ومعارضها، أو جيرسي ومسارحها، أو ميريلاند ومدنها السياحية كاوشن سيتي ورهوبا بيتش، أو هايد بارك لندن أو كارديف، بمعالمها التي تعود للقرن الأوروبية الوسطى وأساطيرها البحرية المدهشة!

كنا نشعر كم نحن محظوظان. كان كلانا يلائم الآخر وبمقاسه تمامًا! رغم التناقض الكبير بين شخصيتها العقلانية وشخصيتي العاطفية. كنا،

متناغمين كنورس ونورسة، وكأن كل منا خلق للآخر بعناية فائقة!

لماذا أقول هذا إذن؟

لأن كلينا كان مرآة للآخر، وكلينا يفهم ما يدور في دواخل الآخر، دون أن ينطق أحدنا بحرف عما يشغله! فهمنا بعضنا فهمًا عميقًا، يندر في الزمان وجوده!

كانت نظرات عينينا وملامحنا متماثلة، ومشاعرنا وأفكارنا متماثلة! كنا كيانًا واحدًا في الحقيقة! رغم اختلاف شخصيتينا وردود أفعالنا، وطرق معالجتنا للمشكلات!

وبعكسي كميال للعزلة، كانت منال اجتماعية جدًا، وذات شعبية كبيرة في (شعب) مجتمعنا السوداني ببرينسس آن، ميريلاند الذي عشنا فيه قرابة الثماني سنوات، حياة مثالية تمامًا، يتمناها الجميع دون استثناء، لم يتعكر صفوها إلا في السنتين الأخيرتين، مع رياح التغيرات التفسية، التي طرأت مع المرض الطويل المدمر!

عندما سمع أفراد مجتمعنا السوداني بخبر وفاتها، أصيبوا بالصدمة، وهرعوا من كل فجاج الولايات القريبة، للتعزية.. لم أستغرب لرؤية بعض صديقاتها، يبكين وينتحبن بحرقة، فالغريب هو ألا يبكي الإنسان مثل هذا الفقد الكبير، الذي لطالما جمّل حياة الناس، في رحلات الجالية وندواتها، وحفلاتها واحتفالاتها ومناسباتها الحزينة. فمنال كانت دائمًا حيث يجب أن تكون، تشارك الناس فرحتهم أو حزنهم!

وسط هذه الفاجعة المدوية، كنت لدهشتي متماسكًا، تمكنت من إخفاء البراكين التي تفجرت داخلي، صحيح لم أنجح في إخمادها، لكنني لم أفشل في محاصرتها!

كان وجهي في غرفة العناية المكثفة، وأنا أتأمل جسدها الذي فارقته الروح، يكاد يكون خاليًا من التعابير، لدرجة مدهشة، ربما لإدراكي أنني مت معها في تلك اللحظة، وفي ذلك اليوم! كنت أجلس بهدوء على الكرسي المقابل لسريرها الطبي، المحاصر بعشرات أجهزة دعم الحياة، والممرضات ينزعن أخيرًا، بعد أكثر من شهر الأجهزة المتصلة بجسدها، ليسدلن الستار، على حياة ملأى بالحيوية والحب والنشاط والتألق الأكاديمي والاجتماعي والوظيفي.

وأنا في غرفة الانتظار، كنت أرانا في منزلنا، وهي تعد (سلطة القيصر) وكل السلطات المميزة التي نحبها، وتعوس طرقتين، أو (ترمي) قراصة أو فطيرة.

كنت أراها وهي تعد إفطار رمضان، أو تخبز للعيد، أو تصنع شيئًا من الحلويات التي أحبها! كنت أراها وهي تناديني من الطابق الأعلى، لتسألني عن شيء ما، فانهض بتكاسل، أصعد السلم، ولا يزال بالي معلقًا بفيلم أو برنامج أتابعه.

كنت أراها وهي تغير اللمبة، المسلطة على طاولة الكمبيوتر، حيث أكتب. بأخرى إضاءتها تحافظ على نظري أكثر!

كنت أراها ونحن تتشاجر، بسبب نسياني وضعف ذاكرتي، وحشدها لكم مهول من الموز والجزر والفيتامينات، مطلوب مني تناولهما قسرًا لتقوية الذاكرة!!

كانت دقيقة، لا تغفل شيئًا، تهتم بأتفه التفاصيل. دائما أنيقة ومتعطرة، لا فرق بين أن تكون في البيت أو في مكان عام. كانت متجددة، جياشة العواطف والعنفوان، وهادئة وعقلانية وحكيمة، لا أدري كيف جمعت بين كل هذه النقائض، التي جعلت منها سحرًا خالصًا!

والآن، وبعد مرور سنوات على رحيلها، هأنا أجد الجرأة أخيرًا على الاعتراف، بأنها قد رحلت عن دنيانا حقًا، فلطالما أحسست بها تتحرك حولي، تضحك ضحكتها التي لا شبيه لها، وتبتسم تلك الابتسامة العذبة، التي تدفع بكل جنون العالم لأن يهدأ ويستقر!

الآن ولأول (وآخر) مرة في ظني، تفاديًا لتجدد الأحزان، أكتب عنها، لها، عنا.. بعد أن ظننت أنني تمكنت أخيراُ من طيْ الحزن على فراقها، ودثرته في صندوق ذكرياتي، الذي لطالما سعيت لإغلاقه بقفل النسيان، ولطالما فشلت، إذ كان طيفها ولا يزال يكسر القفل، ويحلق في الفضاء حولي!

لن أكذب إذا قلت، إنني لا أزال أحنُّ إليها بكلِّ كياني، أحن إلى عطرها المميز، إلى مشيتها على الأرض، إلى الطريقة التي تقود بها سيارتها، وتأكل بها وتحلم بها، وتجامل بها الآخرين، وترتشف بها قهوتها

الصباحية، أحن إلى كل تفاصيل حياتنا معا، خلال عشر سنوات انقضت سريعًا، في لمح البصر دون أن نشعر بها!

رغم مرور سنوات على رحيلها، ورغم أنني تزوجت مرة أخرى وأنجبت، بل وأشعر بسعادة غامرة مع أسرتي، إلا أنني وبكل صدق، لا أزال وأظنني سأظل أحن إلى منال.

صحيح، إن أثر صدمة فقدها قد بهت، وإنني تمكنت من تجاوز محنتي، واستعادة حياتي والسيطرة عليها مجددًا، إلا أن ذكرياتنا معا، لا تزال جذوتها مشتعلة في القلب، فكثيرًا ما تراود أحلامي، فأستيقظ، وأنا أنادي زوجتي الحالية (شذى) باسمها، وفي قلبي غصة عندما لا أجدها بجانبي، فتحزن زوجتي الحالية! ولكن هذا ما لا أملك!

فكثيرًا ما أتخيلها منال!

فلترقد روحك بسلام منال،

إلى أن نلتقي!

(٣)

منال القاصة

منال حمد النيل أحمد عبد السلام، مواليد مدينة كوستي ٢ أغسطس ١٩٧٢. قاصة ذات إيقاع خاص. تفيض قصصها بعذوبة الأنثى. ولا تزيد بعض قصصها، عن أسطر قليلة. نلحظ فيها قدرة عالية على التكثيف، حتى لا نعد نميز سوى أصداء لصوت بعيد، هو صوت الشخصية، التي تتحرك خلف هذه الأسطر.. فكتابات منال تقع في المنطقة الوسط، بين الشعر والنثر والسرد!

حيث تضج في هذه المنطقة بالغربة واللوعة والأحزان، الناهضة في عالم أشد التياعًا وعذابًا! حيث لا راوٍ سوى الإيحاء الدال عليه!

هكذا، دون تحديد اجتماعي أو نفسي – أقصد هنا قصصها القصيرة جدًا – راوٍ مجهول تمامًا، إلا من فيض المشاعر والأحاسيس، المحملة بالأسى والضعف والتحدي كذلك!

نعتمد في هذه القراءة – إلى جانب قصصها المنشورة في مجلة كتابات سودانية، ومجلة الثقافة الجديدة»المصرية» – على قصص أخرى،

قمنا باستخراجها من الشبكة الدولية للمعلومات [١].

حيث نلاحظ على قصصها القصيرة، بصورة عامة. التحرر من الشكل الصارم للقصة القصيرة، الذي تقابله في قصصها المطولة مثل (غربة) و(حبيبات مطر) بشكل الحكاية المفتوح. المتحرر من الحيل الفنية المألوفة! ومزج الشعر بالنثر.

ونجدها بذلك، قد مالت في كل من القصة القصيرة والقصيرة جدًا إلى الغنائية، لتخلق أسلوبها الذي يميزها. إذا اتفقنا أن شكل التعبير، هو ما يحدد نوع النص، لأن العرف الجمالي الذي يشاركه فيه، هو الذي يصوغ شخصيته، إلى الشكل الخارجي والشكل الداخلي، وهذا النوع هو ما وضعه (جان كوهين) بين طرفي الخط الواصل، بين الشعر والنثر، بمعنى التفاوت في درجة شعريته، كمًا ونوعًا!

و- تحديدًا هنا.. أعني قصصها القصيرة جدًا - التي لغتها هي موضوع الشعرية في السرد اليوم، فالشعرية لم يعد موضوعها فقط الشعر بحده المعروف تقليديا، بل الأدب كله [٢] ومن هنا يمكننا استهلال هذه القراءة، بقصصها القصيرة جدًا، المنشورة في (كتابات سودانية - سبتمبر ٢٠٠٤).

(أ) قصص قصيرة جدًا:

في قصتها (مدينة بوح) نلمح أثرًا لاثنين: فتى وفتاة. رجل وامرأة، ربما.. إنسان وإنسانة.. في مكان ما.. زمان ما.. يبوحان لبعضهما «اتفقا على تكوين مدينة للبوح خاصة بهما، لا يعبآن فيها لقوادم الأيام، يلحقا بها هنائتهما، متكررة الهروب (..) وليصبح الخليط المتكون في الكأس عصارة قلب وقلب [٣]».

وهكذا يحاولان أن ينسجا من بوحهما، معنى لوجودهما: فقط هذا كل شيء.. لكنه كل شيء، حقا!!

وفي قصتها (تفاؤل) نجدها تحكي عن امرأة لكل العصور. ذات حضور طاغ في المواسم. ورجل متأفف متذمر. بسبب حياته التي وسمها الشقاء. يلتقيان وعندما يعرفها عميقًا، يكتشف أنها أكثر الناس ألمًا، على الرغم من تفاؤلها «تمتد منها شعاعات التفاؤل، دوافق لتشمل مجالسيها[٤]» فيتغلب على أحاسيسه الرمادية.. لقد علمته معنى أن يبتسم!

وفي قصتها (هزيمة) التي تنطلق من الحاضر، للتعبير عن فكرة (ما) فيه. تشمل المستقبل «(كنت) أعلم أنك (ستكون) هازمي أمام نفسي، وأمام كل شيء [٥]».. تتبدى الاستمرارية بفعل الهزيمة، ورغم هذه الاستمرارية، تقرر بطلة القصة عدم التراجع. فهزيمتها تتمثل في انقيادها لقلبها. وعواطفها. وبانحيازها لعقلها، تقرر خطًا آخر في حياتها.. «لأنني

أصر دائمًا أن أكون (أنا) قررت أن أطرح القلب شلوًا. أن أدفنه لأدفن هزيمتي» ونلمح هنا التحدي الإنساني، في محاولة قهر ثرثرات القلب!

وفي قصتها (حب) نجد أنثى، تتحدث عن أول شخص أحبته، وأجمل الأيام التي صنعها هذا الحب، بعد جدب طويل. لكنه لم يدرك مدى صدق هذا الحب الذي ربطهما، فتخلى عنها، يخامره ما يخامر الرجل الشرقي، من أحاسيس وأفكار وأوهام «ظن أن رجلًا غيره حرث هذه الأرض، وهيأها للعطاء.. تخلى عنها [٦]».. تنهض هذه القصة، في العلاقة المعقدة بين الرجل والمرأة، في المجتمع الشرقي!

وفي قصتها (انحناءة) نجد امرأة أخرى، تحني رأسها للعاصفة ذات مرة. لكنها منذ تلك المرة، لم تحنه أبدًا فقد. اتخذت قامتها شكل الانحناء.

وهي قصة في السياق العام للقصص السابقة. إذ تمكنت فيها منال من تكثيف المعنى، باختصار الألفاظ والدلالات الفائضة، إلى أقصى حد ممكن. لتعبر عن معنى التحدي «أحنت رأسها يوما تتقي شر عاصفة (..) كانت قامتها قد اتخذت شكل الانحناء، منذ تلك المرة [٧]».

وفي قصتها (امرأة لفكرة أخرى). نجد امرأة. محض امرأة مقهورة، حد الوجع. حتى أن قهرها نفسه يلوذ بها.. فحاولت أن تحيا كامرأة – رغم كونها امرأة – بألا تحب. فالآخرون يرونها امرأة، لكنها كالنعامة. لا ترى ذلك «قررت أن تخرج عنقها من الرمل [٨] لكن ما إن أحبت، حتى

«صار ضوؤه نشازًا في داخلها..».

إنها قصة حرمان المرأة من الحب.. فهو ليس من (حقها). فقد تم تقييده بترسانة الفكر الذكوري الجبري، وسلطة العادات والتقاليد والعرف، فالحب في مجتمعها قضية، ليس ثمة استعداد للدفاع عنها..

وعندما تنتزع هذا الحق (حقها في أن تحب)، تتصور أنه ربما يحدث لها مثل هذه المرأة. التي يضج في حقيبتها: ألف عام من الوجع «كانت قد أدركت، ادأنها أخطأت رجلها الهلام [٩]».

وفي قصتها (وحين أحبت) نجد تلك العلاقة المعقدة، بين المرأة وذكور عائلتها الكبيرة.. المتسلطين على نساء العائلة. ما يجعل الشعور بالحاجة للقهر، متأصلًا فيها «وحين أحبت، تمنته قويًا يخضعها لإرادته[١٠]».

وفي قصتها (كان هناك في وجوه المارة).. نجد أنثى تكره المجتمع والناس، ولا تؤمن بالحب. لكن عندما أحبت. تغيرت مشاعرها تجاه كل ذلك «لم تعد ترى في المارة بشاعتهم، ليس لأنهم صححوا فكرتها القديمة، بل لأنها باتت تراه في وجوه المارة [١١]».

فالحب لخص لها كل الحياة، في حالتها الشعورية – بحيث صارت ترى كل شيء؛ خلال هذه الحالة.. هذا الحب – الذي غير نظرتها للعالم والناس والأشياء!

وفي قصتها (رحيل) نجد إثنين، رجلًا وامرأةً ربما.. «لم يكن يعني

لها – منذ الوهلة الأولى – أكثر من كونه رجلًا يضاف، إلى بقية معارفها من الرجال [١٢]..

وفي اللقاء الثاني، تدرك أنه ليس رجلها المنشود «أنه رجل لا تكفيه امرأة واحدة.. من أولئك الرجال، الذين يردمون هوة فراغهم بكثير من النساء! بدأت تلملم أشياءها استعدادًا للرحيل [١٣]».

فمن خلال لقائين فقط. أدركت بـ (غريزة الأنثى)، أنه ليس رجلها. فهي قصة الغريزة الأُنثوية، كأداة تحليل لجوهر فكرة الرجل عن المرأة!

نلاحظ على القصص السابقة، التي وسمتها منال بـ «قصص قصيرة جدًا».. أكبر قدر ممكن من الكثافة – كما أشرنا من قبل – التي تنطوي – فقط تنطوي – على صوت مقابل صوت – غالبًا صوت ذكوري مقابل صوت أُنثوي – أو هو صوت أنثى تتداعى فيه خيباتها أو انتصاراتها، في وحدتها القاتلة – تسفر هذه الأصوات عن هاجس محدد (هو هاجس الحب/ الحياة).. ولا نلمح سوى هذه الأصوات، التي كأصداء متلاشية.

الأزمة العاطفية في الواقع الفعلي، لا تنفصل عن الأزمات الاجتماعية، بل هي تستمد تأزمها من: الاجتماعي الثقافي والنفسي والاقتصادي، إلخ..

كل ذلك عبر أصداء بعيدة، (حتى لتبدو متلاشية) لمصدر الصوت الأصلي، لدرجة أننا لا نميز ملامح محددة (في بناء الشخصية)، فشخصيات منال في هذه القصص، هم مجردون من كل شيء، إلا من

دفقات مشاعرهم الدافئة، أو الأسيانة – حتى الأسماء.

فالقصة عند منال حالة تعبير عن إنسان، كل ما يملكه ويميزه هو كونه إنسانًا.. هكذا دون حاجة لاسم أو لقب!

(ب) قصص قصيرة:

وفي قصتها (قبلك.. كان) تعبر منال، عن لحظة إنسانية مكثفة الحزن واللوعة، بمثابة القانون الذي يحكم حياة فتاة/ أنثى لوقت طويل. قبل أن تلتقي بمن تحب، فتتغير حياتها «تسكن العتمة أرجاء روحي، كما الليلة.. تحاصرني الوحشة من كل حدب وصوب.. لم أستطع فكاكًا من سجن شعوري الحلزوني، رغم محاولاتي الجادة»..

وتجاهد هذه الأنثى المحزونة، في التحرر من العوامل، التي أفضت بها، إلى هذا الإحساس الفاجع بحياتها. فلا تجد ملاذًا يحررها سوى البكاء.. سوى الضعف الإنساني، الذي يعبر – أيضا عن منتهى قوة الإنسان – .. «أبكي.. أبكي، أيتها المرأة الأكذوبة. أبكي أيتها المرأة اللاموجودة (..) هيا مارسي انهيارك. احترمي ضعفك (..) وفي الصباح لا أرى في الضوء غير كائن متطفل، يدخل عيني، دون استئذان.

أرى بقاياي مكومة على السرير، فأجرجر جسدي لأبدأ يومي. قبلك هكذا كانت أيامي »..

لدى قراءتنا قصتيها (غربة) و(حبيبات مطر)، نشعر بأنهما مشروعان لروايتين مميزتين، أكثر من كونهما قصتين قصيرتين!

وتخطر على ذهننا بعض المفاهيم المنهجية، التي تتعلق بالسرد، الذي يمكن تمييزه – السرد – بين نمطين: سرد موضوعي وسرد ذاتي. ففي نظام السرد الموضوعي، يكون الكاتب مطلعًا على كل شيء! حتى الأفكار السرية للشخصيات!

أما في نظام السرد الذاتي، فإننا نتتبع الحكي، من خلال عيني الراوي أو (طرف مستمع) متوفرين على تفسير كل خبر: متى وكيف عرفه الراوي، أو المستمع نفسه!

ففي الحالة الأولى (السرد الموضوعي) يكون الكاتب مقابلًا للراوي المحايد، الذي لا يتدخل ليفسر الأحداث، وإنما يتدخل فقط ليصفها وصفًا محايدًا، كما يراها أو كما يستنبطها، في أذهان الأبطال. ولذلك يسمى هذا السرد موضوعيًا. لأنه يترك الحرية للقارئ ليفسر ما يحكى له ويؤوله [١٤]..

وفي الحالة الثانية (السرد الذاتي)، لا تقدم الأحداث إلا من زاوية نظر الراوي، فهو يخبر بها، ويعطيها تأويلًا معينًا، يفرضه على القارئ، ويدعوه إلى الاعتقاد به!

والحالة الثانية، هى التي نحن معنيون بها في قراءتنا (لغربة) و(حبيبات مطر)، لأن منال في قصصها القصيرة المطولة، تلجأ للسرد الذاتي.

غــربة

في غربة يحدد الراوي بصوت – ضمير الغائب – ابتداءً: الزمان والمكان (غرفتها في تلك البلاد التي اغتربت اليها).. «تشير الساعة إلى الواحدة بعد منتصف النهار، من ظهيرة الثلاثاء (..) منذ قدمت إلى هذه البلاد، التي تشبه الحياة فيها، الوقوف على قنبلة مضغوطة (..) كثيرًا ما تصبح أكثر غربة من الطير في بلادك، حين توصد فيها الأبواب»..

وهكذا يأخذ المكان بُعدًا جغرافيًا نفسيًا معقدًا – غربة – فالإحساس به ليس مجرد إسقاط للغربة فحسب، بل هو علاقة بطلة القصة بذاتها المشروخة أيضا – أبناء وطنها في المهجر – ذاتها التي تتمثل في أبناء وطنها، والذين وجدتهم ليسوا (ذاتًا) بل (آخرًا).. وهي محض (موضوع) للمساءلات الأخلاقية لهذا (الآخر) الذي لا يريد أن ينظر إليها كـ (ذات) مثله!.. من جهة أخرى هي (ذات) بالنسبة لـ (الآخر) الغريب عنها، في هذه البلاد –الآخر بمعنى الساكن الأصلي لهذه البلاد – وبين هذا الآخر وذاك، (في منطقة أخرى ليست وطنها) ينفجر الصراع وتجري أحداث القصة (غربة)!

فهي قصة عن (الذات) أو الآخر بما هو (نقيضي)، وشرط (وجودي)

أو العكس. فقد يكون الآخر شريكًا أو غريبًا. وقد يكون صديقًا أو عدوًا!!

وهذه الثنائية قد تخفت حدتها أو تزداد، وقد تبدو ظاهرة للعيان، أو قد تكمن فتبدو خافية، غير مرئية أو محسوسة. تبعًا لعوامل كثيرة: داخلية وخارجية.. وتبعًا لشروط اجتماعية وتاريخية متعددة [١٥]»..

والقصة غربة، تهيمن عليها في هذا السياق، أجواء ومناخات الغربة. منذ الاستهلال وحتى الخاتمة. فبطلة القصة تصحو من نومها، على سريرها في غرفتها ذات يوم، وتبدأ في استرجاع تجربتها المريرة، بهذه البلاد الغريبة عنها.. حيث تشاركها هذه الغرفة، استشعار الغربة بصورة أكثر حدة.

بل تعمق فيها هذا الإحساس بالغربة.. بفوضى أشيائها الأنثوية المبعثرة في كل مكان، وبالفوضى التي عبر عنها شعرها الغاضب، والأغنية المنبعثة من الريكوردر..

كل شيء رمادي وكئيب، وينطوي على غضب مكبوت!! تركت بطلة القصة بلادها، بعد أن أوصدت في وجهها كل أبواب العمل، وجاءت (مغتربة) لتعمل (جليسة أطفال)، حتى تستطيع سداد فواتير إيجار منزل أسرتها، حتى لا يتعرضوا للطرد مثل مرات راسخة في الذاكرة، وحتى تستطيع سداد فواتير الحياة الكريمة!

ولكن بني جلدتها (الآخر) العاملين في هذه الغربة، يستنكرون عليها الخروج للعمل خارج بلادها (وطنهم) ويشككون في أخلاقها، بل

وينفون انتماءها لبلادهم، التي يكوّنون عنها – بلادهم – صورة مثالية، لا توجد سوى في أذهانهم، كنوع من التعويض النفسي المرضي، لمجابهة قصورهم الأخلاقي – كما حددته الثقافة التي ينتمون إليها بمعناها الشمولي– «يغلظون الإيمان ويحلفون بالطلاق، ويتراهنون على جنسيتها في تبرؤ واضح، وينسبونها إلى أقطار أخرى، فتزداد غربتها!!

وتبدأ في الكشف عن عوامل اغترابها «أما غربة طفولتها فهي وعيها المبكر، بمعنى الحرمان. وأما غربة مراهقتها، فهي الإحساس بمدى الفجوة، والتفريق في المعاملة بينها وبين نديدها الذكر، وأما غربة شبابها، فهي الاصطدام بأرض مليئة بالوعورة والأشواك (..)».

وهكذا تقرر السفر «لمواجهة احتياجات الحياة المعيشية لأسرتها، ولمواجهة احتياجاتها كذلك. بعد أن فشلت في إيجاد عمل ببلادها، على الرغم من أنها خريجة إحدى الكليات الحديثة، في تخصص عملي مرغوب.. «تذكرت معاينات العمل التعجيزية التي دخلتها، يوم طلب منها تلاوة (سورة النور) للحصول على وظيفة مدنية (..) صورة صديقتها ورفيقة طفولتها دامعة. تحكي لها كيف أن مسؤولًا عرض عليها الحصول على وظيفة، لقاء تغوله على جسدها (..) كانت قد حادثتها منذ يومين فقط، تطمئن على حالها.. علمت أنها لم تتوظف بعد. رغم أنه مر على تخرجها ست سنوات »

وتستمر بطلة القصة، بتعابير ملؤها الأسى واللوعة، في استرجاع

محطات فارقة في حياتها، وهي تحادث نفسها، أو تحادث صورة والدها المتوفى، منذ أكثر من عشرين عامًا. وكيف أنها تلجأ إلى الصمت في الواقع كسلاح.. كانت تتحدى بهذا الاسترجاع بؤس حياتها. تعوض في أحاديثها مع نفسها، ومع صورة والدها!

إنها قصة الغربة والوحدة – كذلك - مثلما هي قصة الذات/ الآخر!! الغربة والوحدة، اللتين تعيشهما هذه الفتاة، بمواجهة الآخر الغريب، في البلاد الغريبة والآخر الرجل. والآخر (ذاتها المتشظية).. وهي قصة تسعى بحق، لفتح الحوار واسعًا بين (الذات) و(الآخر) بغرض الكشف عمن يكون هو الآخر، وعمن تكون هي الذات؟!

وكيفية تشكلهما وأسباب ذلك.. مع ملاحظة أن الإطار الموحد، من الفكر والسلوك والثقافة الموروثة، كل ذلك بمثابة الشرط، لإنتاج المفاهيم المتعلقة بالذات والآخر! وهو الشرط الذي انطلق منه بني جلدتها في الحكم عليها، والتبرؤ منها ونسبتها إلى أقطار أخرى!

كيف كانوا يرون أنفسهم؟! ذاك هو السؤال.. فعلى أساس الإجابة، نظروا إليها. وهم يرونها بطريقة معينة، تحدد هويتها في نظرهم. وتميز هويتهم -ثقافتهم المتعالية- عنها!! فمن خلال الانعكاس المفترض، لهاتين الهويتين، يتفجر الصراع داخل هذا النص!

النص يطرح أيضًا السؤال حول: العوامل التي أدت في الأصل إلى اغتراب الناس عن أوطانهم، للحصول على فرصة للحياة، يفتقرون إليها

في بلدانهم! ففي هذا السياق تجري الأحداث «إن الخبرات المشتركة، التي يحصلها الإنسان، ومن ثم الجماعة. تكوّن في النهاية بنية تصوغ رؤية الإنسان لنفسه، والجماعة لذاتها، وللكون والحاجات والعلاقات الإنسانية من ناحية. كما تشكل أيضًا – في الوقت ذاته – مرجعًا للتفسير ودليلًا للسلوك، وإطارًا للانتماء!

بمعنى أنها هي التي تُكوِّنُ وعيًا اجتماعيًا ثقافيًا ديناميًا، ويمكن تسميتُه مجازًا بعقلِ الجماعة [١٦]».. أو عقل القطيع!

حبيبات مطر

القص كظاهرة أدبية يتميز بنوع من التعقيد، يأتي من تعدد مستويات التوصيل. التي أحدها تفويض القاص لراوٍ تخييلي، يأخذ على عاتقه عملية القص، ويتوجه إلى مستمع تخييلي أيضًا، يقابله في هذا العالم.

فالقاص يتقمص شخصية تخييلية. تتولى عملية القص. وسميت هذه الشخصية «الأنا الثانية للكاتب». وقد يكون هذا الراوي غير ظاهر في النص القصصي، وقد يكون شخصية من شخصيات القصة.

ودراسة مظاهر حضور الراوي، تعني اقتفاء أثر صوت الراوي داخل الحكي [١٧]».. وللتطبيق العملي لهذه المفاهيم النقدية على القصة (حبيبات مطر). نجد أنها تبدأ بضمير المتكلم، الذي يتخذ منه الراوي، وسيلة لتعبيره في المضارع المستمر «(أراقب) حبيبات المطر المتكورة على زجاج نافذة السيارة وهي تنزلق بسرعة، في طريقها إلى أسفل النافذة، ثم تقف فجأة بطريقة لا تتناسب وسرعتها الأولى. وكأنها تتردد في الانزلاق منتحرة. لتمتصها الحافة السوداء »..

فنلمح نوعًا من الضجر، يدفع راوية القصة لفعل المراقبة.. ومسترجعة

لأفعال أخرى، قامت بها هذا الصباح، بالغوص عميقًا في ذاكرتها، تحلم بحبيب غائب.. «حين وقفت أمام المرآة عارية إلا من امتلائي بك.. أتفقد نعومتي والتفافاتي – كما لم أفعل قط – وكأني أخشى أن تكون البلادة والتجمد، اللتان تحيطان بي ههنا، قد التهمتا منهما شيئًا، وهرعت أتغطي –قبل أن أتأكد – حين التقت عيناي بعينيك، فقد كانت صورتك بالتسريحة قبالتي، فأدرتها علي ظهرها هل تغار؟!

وهكذا يمضى الراوي – الأنثى– مستعيدًا التياعاته، في هذا البعد المضن عن الحبيب البعيد. ليس لها سوى الوحدة، وصورته التي تمثل عالمها. كل عالمها، فتحادث هذه الصورة، ويمضي الحوار بينهما (الراوي– الصورة).. ليكشف عن عالم هذه الأنثى الحُلُمي اللذيذ، بجرأة وترقب «أنت الرجل الذي يترك في فمي طعمين: هزيمة ونصر.. ويحيي فيّ كل ضعفي.. يوقظ فيّ امرأة غجرية.. تقدم من أدغال ذات طقوس استوائية.. امرأة لم أعهدها فيّ قبلًا.. أو بالأحرى ما أفرجت عنها قط، كما تحرضها أنت الآن فتية ويانعة.. تملي على نضج حاجاتها.. امرأة تترنح زهوًا.. يعج في أعطافها، جنون قبيلة من النساء ».

ثم لا تلبث أن تخرج من عالمها الحُلُمي اللذيذ، إلى عالم اللحظة الحاضرة، التي انطلق منها السرد في استهلال القصة «... أراقب حبيبات المطر المتكورة على زجاج نافذة السيارة، المترددة في الانتحار عند الحافة السوداء، وأخرج من تأملاتي على صوت مكتوم جراء كبح الإطارات،

وكأنه يذكرني بضرورة ممارستي، لهواية كبح مشاعري »..

لتتبدى لنا شيئًا فشيئًا، خلفية هذه الأنثى، التي تعوض في استدعائها لطيف الحبيب الغائب، ومناجاتها لصورته، وحدتها وحرمانها في الواقع!

إلى أن تنتزع بصوت «أيقظني للمرة الثانية صوت زميلتي، تؤكد لي أننا قد وصلنا.. ألقيت نظرة أخيرة على حبيبات المطر المتكورة على زجاج نافذة السيارة، والمترددة في الانتحار على الحافة السوداء.. وكأنني ارتبطت بها لامتزاجها بأفكاري ».

وارتباط تداعي هذه الأنثى، بتداعي حبيبات المطر على نافذة السيارة، التي تقلها هي وزميلتها، ليشكلان هنا – حبيبات المطر وحالتها الشعورية – رمزية الخصب بدلالة المطر، والشوق بدلالة استدعاء هذا الحبيب الغائب، ومناجاة الذات في حوار مشحون بالظمأ والاشتياق. ومحاولة التحرر من كبح الذات!

«ترجلت. ورغم أني ارتدي فستانًا أنثويًا بسيطًا، معرى الصدر، والجو بارد نسبيًا، إلا أنني تمنيت أن تلامس زخات المطر جسدي.. عله يخفف من زخم مشاعري، ويغسل غربتي ووحشتي »..

وهكذا تعود مرة أخرى للغوص في داخلها، ومناجاة حبيبها وذاتها «وأنت؟.. أنت.. طفلي الأروع.. طفلي الرجل.. الذي يعيد إليّ الدماء، ويشعل ساحاتي أملًا ووعدًا، غني الاخضرار (..).. وأشعر بشوق دافق

لأن الأمس تلك الحبيبات كطفلة.. تنتابني أحاسيس شتى، أوضحها حُلُمي بك، وافتقادي لك.

علمت دومًا أني أمتلك ينابيع مشاعر.. عاطفة دافقة.. اختزنتها لرجل احتل روحي منذ ملايين السنين.. يفترسني بحب التهامي الطبع.. نازي النزعة، جعل رضائي وانسجامي مستحيلًا.. كلما أطل في الأفق طارح غرام.. فرغم عدم وضوح معالمه وملامحه داخلي، إلا أنني شعرت به دومًا، كلما اقتربت من شفافيتي ورهافتي.. وأتوغل أنا بعدًا.. كلما ولجت عتمة حزني ومادية تفاصيلي.. إلا أنه كان دومًا هناك.. يرقبني، ويسكنني.. رجل لم التقه قط.. ولم أنتظر هبوطه هكذا على حين غرة، ودون سابق إنذار».

وهكذا تستمر هذه القصة، التي هي مزيج من لغة الشعر والقص، مستخدمة تقنية انعكاس المرايا، لبث تجربتها الذاتية في انتظار هذا الرجل، الذي يملأ كيانها، ويشعل فيها الحرائق والجنون.

هوامش:

(١) كتابات سودانية، كتاب غير دوري، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، العدد ٢٩، ٢٠٠٤، ص: ١٤١

(٢) استخدم محرك البحث في مواقع: www.masarat.org

www.beghdad–bangkok.net

www.adbyat.com

www.wedyan.net

(٣) طراد الكبيسي. جماليات النثر العربي– الفني. دار الشؤون الثقافية. بغداد .٢٠٠١. ص: ٦

(٤) كتابات سودانية. «كتاب غير دوري». مركز الدراسات السودانية. العدد ٢٩. سبتمبر ٢٠٠٤ ص: ٨٣

(٥) السابق: ص: ٨٣

(٦) السابق: ص: ٨٤

(٧) السابق: ص: ٨٤

(٨) السابق: ص: ٨٤

(٩) مجلة الثقافة الجديدة المصرية. العدد ١٧٤. ديسمبر ٢٠٠٤. ص: ٨٦

(١٠) السابق: ص: ٨٦

(١١) السابق: ص: ٨٦

(١٢) السابق: ص: ٨٦

(١٣) السابق: ص: ٨٦

(١٤) السابق: ص: ٨٦

(١٥) محمد السيد محمد إبراهيم. بنية القصة القصيرة عند نجيب محفوظ «دراسة في الزمان والمكان». الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة أولى ٢٠٠٤ ص: ٣٤٥

(١٦) سيد إسماعيل ضيف الله. الآخر في الثقافة الشعبية. مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان. ٢٠٠١. ص: ٨

(١٧) السابق: ص: ٦

(٤)

نماذج قصصية *

(١) مدينة بوح

عانا.. تعذبا.. التقيا.. أعطيا نفسيهما مساحة بوح، بقدر الكأس. ملأتهما رغبة - في الاقتراب أكثر- مترددة ولكنها لحوح. تصر على اجتياز المساحات الصقيعية. وتأبى جزيئاتهما المتشابهة إلا أن تجتنس في هذي الكأس!

وبعد خشية ولأي.. اتفقا على تكوين مدينة للبوح خاصة بهما.. لا يعبأن فيها لقوادم الأيام.. يلحقا بها هنائتهما متكررة الهروب. وليصبح الخليط المتكون في الكأس: عصارة قلب وقلب!

(٢) تفاؤل

كانت امرأة لكل العصور.. موسمية الحضور، تمتد منها شعاعات التفاؤل دوافق؛ لتشمل مجالسيها. وكان كثير التأفف والتذمر.. رافق الشقاء زمنًا أكسبه سوداوية.. تعرف عليها.. تقرب منها.. وجدها أكثر

الناس ألمًا.. تعلم منها روعة أن يبتسم، حين تقترح عليه معطيات الواقع البكاء!

(٣) هزيمة

كنت أعلم أنك ستكون هازمي، أمام نفسي، وأمام كل شيء فيّ.. وخضت التجربة.. لا لروح المغامرة فحسب، بل لأنني أردت التحدي.. وخرجت مهزومة!!

ولأنني أصر دائمًا أن أكون (أنا).. قررت أن أطرح القلب شلوًا.. أن أدفنه.. لأدفن هزيمتي!!

(٤) حب

كان الأول في حياتها.. أشعل فيها مواسم الفرح.. بعد طول جدب.. علمها كثير حبه أبجدية التجاوب.. تعاملت معه بتلقائية.. ظن أن رجلًا غيره حرث هذه الأرض، وهيأها للعطاء.. تخلى عنها!

(٥) انحناءة

أحنت رأسها يومًا لتتقي شر عاصفة.. وفي حالات مشابهة.. لم تحتج لأن تحنه ثانية.. كانت قامتها قد اتخذت شكل الانحناء، منذ تلك المرة!

(٦) امرأة لفكرة أخرى

كانت امرأة يضج في حقيبتها ألف عام من الوجع والقهر.. يجهض فيها أبجدية الفرح دومًا.. قررت أن تخرج عنقها من الرمل، بأن بدأت تمد ذاتها، وترشوها بحفنة من إيحاءات موجبة!!

تسلل إليها ألقه.. أصبح ضوؤه طاغيًا، يفترس في داخلها العتمة.. يمضغ سحابات الحزن المتكدسة!! فجأة.. أوقفت تمدده في أوعيتها ومسامها.. كانت قد أدركت أنها أخطأت رجلها الحلم..

(٧) وحين أحبت

كانت تكره في الرجل – أبًا وأخًا، خالًا وعمًا – تجبره على النساء.. وتسلطه عليهن..

وحين أحبت.. تمنته قويًا يخضعها لإرادته!

(٨) كان هناك.. في وجوه المارة!

كانت تكره المجتمع والناس، وكل ما يتعلق بهم.. هم أوصلوها إلى هذه الدرجة.. لم تكن تؤمن بفكرة الحب.. وتعتقد أن الحب وهم كبير.. ابتدعه الناس.. ليغضوا به أبصارهم عن بشاعة بعضهم البعض وفظاظتهم..

وجدته كملايين الشبان العاديين، الذين تلتقيهم يوميًا وتكرههم..

حين خروجها إلى الشارع، لم تعد ترى في المارة بشاعتهم! ليس لأنهم صححوا فكرتها القديمة.. بل لأنها باتت تراه في وجوه المارة!

(٩) رحيل!

في لقائها الأول به.. لم يكن يعني لها – منذ الوهلة الأولى – أكثر من كونه رجلا، يضاف إلى بقية معارفها من الرجال.. سكن خيالها تلك الليلة.. وليلتين آخرتين.. كانت تكره أن تكون انطباعية.. لذا بدأت برسم ملامح اللوحة الأساسية، دون أن تتمها بنفس اللقاء..

في لقائها الثاني به، بدأت تكمل رسم اللوحة: إنه رجل لا تكفيه امرأة واحدة.. من أولئك الرجال، الذين يردمون هوة فراغهم، بكثير من النساء..

بدأت تلملم أشياءها استعدادًا للرحيل.. كانت تكره فكرة أن تشاركها أخرى، التلظي بنار هوى رجلها المرتجى..

(١٠) غربة

تشير الساعة إلى الواحدة بعد منتصف نهار ظهيرة ثلاثاء، لا تدري من أي يوم هي من أيام ديسمبر.. يصير حساب الزمن لديها، في حياتها الراكدة أمرًا لا طائل وراءه..

تستيقظ للتو.. تهطل حزنًا يعبئ خلاياها بالوجع، إلى أن يسكنها الموت!

تتحسس بقايا روحها الصدئة!! لا شيء هناك سوى طعم الخواء الملازم لتوقف النبض في عروقها.. تنحدر منها دمعه وحيدة، كندي فجر حزين.. دمعة منطوية على نفسها.. متعثرة في تدحرجها!

كانت فوضاها تعم المكان: حذاء البارحة المتوثب في تمرد، كأنه يهم بالانقضاض – سخطًا – عليها.. كأس عصير فارغة كداخلها! كانت قد تجرعتها فجرا قبل خلودها إلى النوم.. قارورة ماء صحي، وتفاصيل كثيرة، مبعثرة هنا وهناك!

تسند ظهرها على الريكوردر، جوار فراشها. معلنة استنفاد التعب بجسدها المنهك..

فراشها الفوضى، وغطاؤها الأملس المتزلق، كأن معركة للتو فضت تحته!! تسحب أوراقها التي لا تفارق أسفل وسادتها، في تكاسل.. تنزلق الأوراق من بين أصابعها، كما الزيت على يد مفردة! لتكمل اللوحة فوضوية المزاج والتشكيل.. حقيبة أروالها، مفرغة المحتويات في إهمال، وما زالت بعض الأروال، عالقة بشعرها الغاضب المتطاير، المنتفض!

تنتبه إلى أن غناء المغنية الصاخب – كاسيتا اختارته كيفما اتفق – يناسب سخط المكان!

كان صراخ المغنية، لا يزال يعلو.. يستفزها.. يحرضها على إفراغ صديد حنجرتها المكتوم، منذ قدمت إلى هذه البلاد المسكونة بالخوف، التي تشبه الحياة فيها، الوقوف على قنبلة مضغوطة.. لكم تمنت أن

تنفجر، على أن تمضي الزمن انتظارًا لهذا الحدث الداوي..

حياتها، حياة لا تحتاج إلى عقل أو حس أو روح، بل تحتاج فيها إلى أن تطور خلاياك، لتصير بخصائص آلة، أو إسفنجة.. تمتص وتمتص وتمتص، إلى أن تنفجر، على تجويفك الداخلي لينتهي فيك كل شيء!

كثيرًا ما تصير أكثر غربة من الطير في بلادك! حين توصد الأبواب بوجهك! فكيف بك وأنت غريب دار؟ كل الأبواب توصد، ولابد من حل عاجل وسريع!.. توصد الأبواب، وتمتلئ غربة..

غربة تضاف إلى غربة طفولتها، ومراهقتها وباكورة شبابها، غربة تفسد عليها دوما، متعة الانسجام في كل مراحلها، وتضعها بشكل دائم في موقع المراقب!

أما غربة طفولتها، فهي وعيها المبكر بمعنى الحرمان، وأما غربة مراهقتها فهي الإحساس بمدى الفجوة، والتفريق في المعاملة، بينها وبين نديدها الذكر.. وأما غربة شبابها، فهي الاصطدام بأرض لا تخلو من الوعورة والأشواك!

هي ملك للواقع بكل معطياته، وأولها الإحباط! فتقرر بعناد السفر.. السفر هربا من ذاك الحلم المفزع، الذي يلازمها منذ الطفولة، والذي يزداد وحشية، كلما أضيف عام جديد، إلى سنوات عمرها!

ازدادت وعيًا بمعنى الحُلُم.. حُلُما ترى فيه أشباحًا تحمل

هراوات مخيفة.. أشباحًا تكشف عن أنياب تثير الرعب، تنهال ضربًا على والدتها، لعجزها عن دفع إيجار السكن! فيفزعونها وإخوتها الصغار.. تستيقظ باكية!

ويظل للحُلُم نفس التأثير.. رغم أنها تناهز الآن السابعة والعشرين تقرر السفر، وهي تعلم أن (هيئة الكهرباء والمياه) لن تنتظر لسداد فواتيرها، بحثًا عن وظيفة تناسب مؤهلها الدراسي، فهي خريجة إحدى الكليات الحديثة (علوم الطيران).

ولعت بتخصصها الأكاديمي! ربما لأنها أرادت لروحها وعقلها أن يجوبا الأفق دون قيود! واكتفت بهذا التخصص، حين عجزت عن مواصلة دراستها للغة الإنجليزية، في جامعة الجزيرة!

وحين رفضت التصاريف التعاون وإياها.. والواقع أنه كان يقف وراء اختيارها لهذه الدراسة، سبب آخر مهم، هو اعتقادها أنها ستتمكن بواسطتها، من تعويض أسرتها عذابها وحرمانها الطويل، أكثر من دراستها لأي علم تقليدي آخر! وهكذا تتحول مجبرة إلى ذاك التفكير المادي! فهل المادية – رغم كل ذا – تهمة يمكن أن توجه لإنسان هذا العصر؟!

وهكذا تشد الرحال.. تشده إلى بلد غريب، ليس لها به والد ولا ولد.. تشد الرحال، حين تصير عزلاء من أي سلاحٍ.. تشد الرحال من بلاد ينتصر فيها سلاح المال، أشد أسلحة التاريخ فتكًا!

تشد الرحال، ولا طمع لها، في أكثر من حياة مستقرة، نظيفة،

تحفظ بها ماء وجه أسرتها من ذل الحاجة، وتحفظ بها أخوتها الصغار من انحرافات الفقر الموجعة، التي تستشري استشراء الخلايا السرطانية!

تشد الرحال.. ولا زاد لها.. غير صورة لأبيها - المتوفى قبل عشرين عامًا - صورة قديمة مهترئة الأطراف!

وتهبط بها الطائرة في الخليج. بلد الأحلام.. بلد أن تقول (يا شيء) فيأتي حاضرًا كما كان يشاع، فتسمع باهتمام..

تهبط ومعها كثير إرادة، وبعض ثقة! وقليل من تحدٍّ! يناسب عناد شخصيتها.. تهبط بعد أن حسبت حساب صعوبات كثيرة، يمكن أن تواجهها، إلا أن يرفضها بني جلدتها هناك كـ (جليسة أطفال)!

كانوا - كما عرفت لاحقًا - يغلظون الإيمان، ويحلفون الطلاق، ويراهنون على جنسيتها في تبرؤ واضح، وينسبونها إلى دول أخرى! لشعوبها نفس الملامح ودرجة السمرة! لا لشيء إلا لأنهم يفاخرون، أن فتياتهم لا يتغربن، ولا يعملن مثل هذا العمل!

ولا تأبه لهم كثيرًا..

فكل يحكم من وجهة نظر خاصته!

فهي تعمل هذا العمل، وتقبل به لكرهها أن تعمل ببلادها عملًا آخر مذلًا.. فالذل من أهلك أمرَّ طعمًا من إذلال الغرباء.. تذكرت معاينات العمل التعجيزية التي دخلتها، يوم طلب منها تلاوة سورة

النور، للحصول على وظيفة مدنية.. افترت شفتاها عن ابتسامة تذوقت طعم حنظلها.. تساءلت: وهل كان من نور حينئذٍ لتتذكر آية واحدة من سورة النور، تتلوها عليهم؟ تبًا لهم أولئك الجهلاء المتنفذون!

خيل لها أن ذاكرتها في هذه اللحظة، تخرج دخانًا أسود كثيفًا، خرجت من بين دواماته صورة صديقتها، ورفيقة طفولتها دامعة العينان! تحكي لها كيف أن المسؤول الملتحي، الذي اشتهر بالورع، عرض عليها الوظيفة لقاء تغوله على جسدها؟!

كانت قد حادثتها منذ يومين فقط، تطمئن على حالها، علمت أنها لم تتوظف بعد.. رغم أنه مرَّ على تخرجها ست سنوات!! دار بخاطرها حينها، أن تطلب من أولئك الذين يتبرأون منها، أن يشكروا الله، على أنهم لا يزالون أحياء يرزقون، ويحمدونه أكثر، على أنه لم ييتم لهم بنتًا، ولم يرمل لهم امرأة! غير أنها؛ تعرف أن المجال ليس مجال توضيح أو تبرير، فليفهم كل من يفهم، وليرفضها كلٍ من شاء، فلن تتنازل عن هويتها لأحد! وليرونها عقد ملكيتهم لوطنها البعيد!

والحق يقال رغم أن هذا الموقف أخذ شكل التحدي في نفسها، إلا أنه أحدث فيها شرخًا عظيمًا، عمّق كثيراً، من إحساسها بالغربة والوحشة، كان الصمت سلاحها الوحيد، فأخذت ترمقهم دون أن تنبث حرفًا في حزن وأسى!

وحين يأتي الليل بعد نهارِ عملٍ مضنٍ، مليءٍ بالحركة، تهرع إلى فراشها،

وهي مثقلة بأوجاع نفسية، تحتضن أباها - في الصورة مهترئة الأطراف - لطالما بثته همومها، وسألته محتجة على رحيله المبكر، «لماذا تركتني وحيدة يا أبي في مهب الريح؟!»، ثم لا تلبث أن تحتضن الصورة برفق!

كانت تحمل داخلها، مخزون آلام لا ينضب، من طفولةٍ ممتدة في الحرمان والظلم والأحزان، والتصاريف المأساوية للقدر.. وكان أبوها يخرج من الصورة، يهدئُ الطفلة المذعورة، ويمسح بكفه على خدها، يداعب شعرها ويربت عليه. فتنام والدمع ملءُ المقل طازجًا لا يجف!

ليس هناك من هو أقدر منها على الصمت.. حتى أن إحدى الوكالات التي باشرت بها، إجراءات سفرها المتعثرة، أطلقت عليها اسم ابو الهول، ليس لمعرفة سابقة بالطبع، لكنه كان صمتًا مشحونًا بكبرياء يتقاطر دمًا، ولا يخلو من إقدام وجسارة الحب، والتقدير لأسرة، تحاول أن تلملم جراحها النازفة، وتضمد شروخها، طاعنة العمق!

وربما كان صمتًا مشحونًا بالعجز والرجاء!!

ليس بأقدر منها على الصمت، ففى الصمت تنكفئ على ذاتها، تحاول فهمها! وها هي ذي، تجد ضالتها في هذه الغربة، التي تنحت فيها بأزاميلها الحادة! تحفر داخلها وتمحصها.. تحاول بصدق أن تحاصر فيها مساحة الكذب. تحاول أن تجد لكل شيء تبريره الحقيقي، دون أن تقع في فخ تبريرات مرضية، ترشو بها ذاتها!

وهكذا تعالج وجع الحقيقة بكل مراراتها.. ما هي أخطاؤها تجاه

نفسها، كفتاة عصرية. تحاول أن تصنع لها كيانًا.. دون أن تكون بعقلها ثغرة، ينفذ منها المثل الشعبي (المرا لو بقت فأس ما بتكسر الرأس)!

إن كل تجربة ناضجة ومكتملة، تحمل في أحشائها قصصًا للفشل والتعثر.. فلن يكون هناك نجاح إلا بعد فشل، ولن يكون هناك وقوف شامخ إلا بعد تعثر.. ولن يكون هناك استواء على قمة إلا بعد سقوط.. ولا شك أن هناك فرقًا بين الذين يراقبون انهياراتهم بوعي، والذين يعدُّون الإنهيار محطة قصوى لا يوجد بعدها قيام.. وها هنا تستطيع أن ترى بوضوح، موقعها من كل ذا!

فيا لخوفها من وحدة تحاصرها.. فهنا للوحشة والوحدة طعم آخر، يلقيان بذاتهما على كل شيء، حتى أن سمكة للزينة حين ماتت، سألتها إحدى زميلاتها حديثات العهد بالغربة والمكان، عن سبب موتها، كيما تتجنب ذلك لاحقًا، فأجابتها أنها ماتت بسبب معاناتها من الوحدة!

وكذا كل زميلاتها اللائي ينطوين على نصيب مقدر من جحيم العالم، كن يختلفن في كل شيء باختلاف ثقافات أوطانهن، ويتفقن فقط في وجعهن الإنساني، وهن بطلات لا يذكرهن التاريخ ولا يعرفهن!

يتنازلن عن حياتهن ليحيا غيرهن!

تحضرها ذكرى جداتها، وهن يغرسن فيها باكرًا قيمة الإيثار، قيمة أن يكون (خيرك لغيرك) بدعائهن:

«إن شاء الله يا بتي تبقي غابة والناس حطَابة!»

فتخالهن وقد دعين لكل هؤلاء الفتيات.. فتيات يكتفين من شبابهن – رغم جمالهن – ببعض اهتمام لا ينفككن يمارسنه حتى يتركنه، لتذكيره إياهن دائما، حاجتهن الفطرية لرجل! فتراقبهن.. وهن يكرسن أمامها حجم المأساة.. تراقبهن، وهن ينجبن فتيات بلاستيكيات، يأخذن من اهتمامهن الكثير، ولا تنفك تراقبهن حتى تنزلق هي الأخرى، إلى هذا النوع من الهروب، فتنجب فتأة بلاستيكية!

تراقبهن وتشحذ مقدرتها على قراءة هذه الوجوه الصامتة، والألسن الصارخة رغم خرسها! فهي قد جبلت على قراءة وجع النساء، بداية بأمها شامخة النشيج!

في الصباح ينتشرن، في دهاليز القصر الأميري المترف. جميعهن أتين من عوالم أخرى.. ليس بأزقتها أبواب مقفلة.. ولا بمدنها شباب للتعليب.. ولا أفراح للتأجيل.. ينتشرن الآن في قصر كبير، مفرط الأناقه هو لشخصين أو ثلاثة على الأكثر. يحل بوطنها البعيد مشكلة إسكان عشرات الأسر!

بيروت يناير ٢٠٠٤

(١١) قبلك.. كان...

تسكن العتمة أرجاء روحي، كما الليلة. تحاصرني الوحشة من كل حدب وصوب. لم أستطع فكاكًا من سجن شعوري الحلزوني، رغم محاولاتي الجادة!

تسللت إلى الصالون، بعد أن نامت الفتيات، أنا وحقيبة أوراقي المنتفخة، بالفجائع والآهات!

جلست لبرهة دون أن أفعل شيئًا، دون أن أضيء النور، كأنني أخاف، أن أرى دمامل ألمي في الضوء. كم أشعر بأنني بحاجة ماسة إلى البكاء!

تغرورق عيناي بالدموع.. بقية من تعقل تقترح على ألا أفعل.. لن انصاع لتعقلي.. سأفتح مسام خلاياي التالفة، وسأزور دهاليز عمري، الملغومة بالألم. لن أعتقل ردة فعلي كما أفعل دومًا، وسأوارب الأبواب لأحزاني!

(ابكِ.. ابكِ.. أيتها المرأة الأكذوبة.. ابكِ أيتها المرأة اللاموجودة.. ابكِ.. لا حاجة لك بصدرٍ خاوٍ لتفعلي.. لا حاجة لك بيد رابتة لتفعلي.. هيا مارسي انهيارك.. احترمي ضعفك)!! ثم.. أجهش لا تلوي أشجاني المتفجرة على شيء.. وفي الصباح.. لا أرى في الضوء غير كائن متطفل.. يدخل عيني، دون استئذان!

أرى بقاياي مكومة على السرير، فأجرجر جسدي لأبدأ يومي.. قبلك هكذا كانت أيامي!

(١٢) راية بيضاء

أتمدد في استرخاء رغم التعب.. أتحسس الطريق إلى ملامحك، في ذاكرتي المتخمة بك، وبين الصحو والإغفاء، أحسك تملؤني.. ابتسم لذكرى الأشياء في تؤدة.. لشد ما يتقمصني الشوق إليك!

في الماضي.. كان قلبي يتوحش شيئًا فشيئًا. الآن يتفتق عن براعم غامضة، تتفتق في عسر.. تتسلل روائحها الندية داخلي ببطء شديد، فتتحسسها مشاعري بتردد!

أحاول لملمة أطرافي، كعباءة أشدها بإحكام، على مداخل القلب!!

أنا قربك يا حبيبي متماسكة، وبعيدة عنك شلوًا وتمزق.. يسعى لرتق ذاته! قريبة منك يا حبيبي، تسكنني رغبة أن أتمسح بأكتافك كقطة أليفة، روضها طغيانك!

(١٣) نمت آمنة

امتطيت جلدك من ركامي.. تخبأت به لائذة.. عمد إلى احتوائي.. وقبل أن تغشوني الإفاقة من صقعة دهشتي!.. رأيت الليل ينقشع في الضوء!

شهدت دروبي الجليدية يتسلل إليها الدفء، فتذوب ثم تتلاشى.. صار عند مفترقها دون درب!

أتحول إلى غاز خفيف يهوم في سماء العشق! تأنف روحي أن تجتنس إلا وروحك!

وحين توحدنا، تدفأ كل العراة.. اطمأن الفقير، ولم ينم طفل جائعًا.. حين توحدنا كفَّ الإرهابيون عن تفجير رياض الأطفال والمستشفيات! كنت قد امتطيت جلدك.. سرت بي ثيابك.. بنطالك البني.. تي شيرتك البيج.. ملامحك الهادئة التي تخبئ عواصف العالم وبراكينه وزلازله، خلفها!

كنت قد عصفت بوقاري.. حيائي.. وفجرت في كل جنون العالم!

رأيتني فيك ورأيتك في! ولم تتبقَّ سوى خطوة واحدة لأصير أنت وتصير أنا!

حين حدقت بالمرآة أسوي شعري قبل النوم. لم يكن وجهي هناك! لم يكن سوى وجهك أنت. فتمددت على سريري ونمت آمنة! فأخيرًا قد نمت!

الرياض

١٦ يناير ٢٠٠٤

(١٤) حبيبات مطر

الليلة شتائية ممطرة. أراقب حبيبات المطر المتكورة على زجاج نافذة السيارة، وهي تنزلق بسرعة، في طريقها إلى أسفل النافذة، ثم تقف فجأة بطريقة لا تناسب، سرعتها الأولى! وكأنها تتردد في الانزلاق منتحرة!

قبل أن تمتصها الحافة السوداء!

غرقت في أفكاري! وغفوت يقظة أحلم بها.. أبتسم لذكرى ما فعلته هذا الصباح. حين وقفت أمام المرآة عارية إلا من احتوائك لي وامتلائي بك!

أخذت أتفقد نعومتي والتفافاتي - كما لم أفعل قط - وكأني أخشى أن يكون طارئ قد طرأ، على هذه المقتنيات التي أحافظ عليها لك!

.. وهرعت أتغطى - قبل أن أتأكد - حين التقت عيناي بعينيك! فقد كانت صورتك على التسريحة قبالتي!! أدرتها على ظهرها.. هل تغار؟!

أنا أعيش وصورتك حياة كاملة، وقصة مكتملة.. أحادثك وأناجيك وأحاورك.. أنيمك على حجري وأوقظك.. أمازحك وأضاحكك.. ويصيبني الحياء حين أكتشف وأنتبه، إلى أني أفعل شيئًا يجب ألا أفعله في حضورك!! وكأن صورتك أنت.. بل هي عندي أنت.. وأنت؟!

أنت تسكن خلايا عصبي المتوتر، المملوء بك.. يقيمك نبض قلبي رجلي الأوحد! الذي اختزل كل الرجال!

وأنا أفكر في ما يحدث معي، في ساعات صدقي واسترخائي! في لحظات تشبه السقوط من قاع الغفو، إلى سطح الإغماء، اكتشف أنه يصعب عليّ، تفريق الحقائق والأحلام، بعضها عن بعض! فأتوه فيما بينهما!

وفي أحايين أخرى، يبدو لي أن الأمر.. كل الأمر أضغاث أحلام، تتلاشى في رحاب كوني واسع.. أعجز فيه عن لملمة خيوط الواقع والخيال معًا!

عجزي عن إدراك، ماهية ذلك الرحاب، المخيف والممتع معًا، يدفعني إلى الاكتفاء، بأن أعيشه فقط، دون ارتعاب من فكرة الخوف، أو خوف من انتهاء اللذة!

ولا أكاد أسعد باستعادتك لي، حتى أتناقض وأقر، أن حبي لك هو الجحيم عينه، وأنت.. أنت الرجل الذي يترك في فمي طعمين: هزيمة ونصر!! ويحيي فيّ كل ضعفي.. يوقظ فيّ امرأة غجرية.. تقدم من أدغال ذات طقوس استوائية.. امرأة لم أعهدها في قبلا.. أو بالأحرى ما أفرجت عنها قط، كما تحرضها أنت الآن فتية ويانعة! تملي على نضج حاجاتها! امرأة تترنح زهوا! يعج في أعطافها، جنون قبيلة من النساء!*

***

أراقب حبيبات المطر المتكورة على زجاج نافذة السيارة، المتردد في الانتحار عند الحافة السوداء! وأخرج من تأملاتي على صوت مكتوم، جراء كبح الإطارات! وكأنه يذكرني بضرورة ممارسة هواية كبح مشاعري! لكنني لن أفعل وسأغدق بك علي!

تسلل إلى خياشمي عطري الهادئ، يعزز أحاسيسي بك.. يضوع في

أنحاء ذاكرتي المشحونة بنبرات صوتك الدافئ.. صوتًا ينضح بالوعد.. يحدث عن رجل ناضج وعميق.. آه يا حبيبي، كم انتظرتك وانتظرتك.. حتى ظننت أنك لن تأتي أبدًا!

أيا رجلًا يسرقني في اليقظة والأحلام.. كيف أنك تخرجني من رطوبة شرنقتي.. صمت تقوقعي.. تسحبني، حتى وأنت لست معي، في حوار متسق متصل حلو ولذيذ!

يسكنك روحي وقلبي وعقلي، قبل أن تباركك كل مسامي وخلاياي وصولًا لبقيتي. أيقظني للمرة الثانية صوت زميلتي تؤكد لي أننا قد وصلنا!

***

ألقيت نظرة أخيرة على حبيبات المطر المتكورة، على زجاج نافذة السيارة، والمترددة في الانتحار، على الحافة السوداء.. وكأنني ارتبطت بها، لامتزاجها بأفكاري!

ترجلت عن السيارة.. ورغم أنني أرتدي فستانًا أنثويًا بسيطًا، معرى الصدر، والجو بارد نسبيًا، إلا أنني تمنيت أن تلامس زخات المطر، جسدي.. علها تخفف من زخم مشاعري وتغسل غربتي ووحشتي!

***

كان لون فستاني رماديًا - تمنيته اللون الرمادي الأخير- الذي

يفصل بين اسوداد ماضي أيامي، وابيضاض قوادمها. ولجنا قاعة الحفل.. أطفال ونساء من كل حدب وصوب.. رقعة مصغرة، من ثقافات أزياء نساء شعوب العالم!

ولارتباط المطر في مخيلتي بالطين، وطئت لأرى حذائي، إلا أنه كان لا يزال نظيفًا ولامعًا، ورغم أن ضيقه نوعًا ما كان يؤلمني قليلًا، إلا أنني لم أخلعه أو أستبدله، فأنا لا أرغب في إفساد أناقتي وكأنني فعلًا، على موعد للقاء بك!

كنت قد أوحيت لنفسي حين صحوت ممتلئة بك، أن أتزين بإحساس أنني سألتقيك.. وسرعان ما فصلت عن محيطي، وعدت إلى عالمي المسكون بك مرة أخرى!

سألني طفل صغير، فابتسمت له دون أن أعي ما يقول.. كم كان رائع الطفولة، عفوي الضحكات.. صادق الاستجابة. في انبهاره بكل سحر العالم الملون حوله! وتساؤلاته التي لا نهاية لها!

وأنت؟!.. أنت يا طفلي الأروع.. طفلي الرجل، الذي يعيد إلى الدماء، ويشعل ساحاتي أملًا ووعدًا غني الإخضرار.. وهؤلاء النسوة الأميريات، اللائي، هجرهن أزواجهن الأمراء الصائعين، ها قد تبرجت بهن الألوان.. أتجول في وجوههن المغضونة، رغم الجهد المبذول، في تجميلها، كان قد أنهكها تعب الرقص والنميمة والسهر! كم أشعر بالتفوق عليهن بعشقي لك.. ألا يكفيني البريق الذي أهديته عيني؟!*

***

لا يزال المطر يهطل، مكونًا تلك الحبيبات المترددة، في الانزلاق، منتحرة عند الحافة السوداء.. أشعر بشوق دافق كطفلة، لملامسة تلك الحبيبات.. تنتابني أحاسيس شتى، أوضحها حلمي بك، وافتقادي لك.. علمت دومًا أني أمتلك ينابيع مشاعر.. عاطفة دافقة.. اختزنتها لرجل احتل روحي منذ ملايين السنين.. يفترسني بحب التهامي الطبع.. نازي النزعة، يجعل إرضائي وانسجامي مع رجل سواه مستحيلًا!

رجل رغم عدم وضوح معالمه وملامحه داخلي، إلا أنني شعرت به دومًا، وها أنا كلما اقتربت من شفافيتي ورهافتي.. أتوغل بعدًا، وكلما ولجت عتمة حزني ومادية تفاصيلي.. داهمني رجلي غامض الملامح، لينتشلني إلى رحاب حدائقه مورقة الخصوبة!

دومًا كان هنا وهناك.. يرقبني، ويسكنني.. رجل لم ألتقه قط.. ولم أنتظر هبوطه هكذا على حين غرة، ودون سابق إنذار!

عدت ممتلئة بك، يفترسني شوقي! وحنيني إليك يزحف على أعصابي، فيقشعر جسدي، وأشرع أرتدي لك أجمل ما رأيت أنه يروقك من قطع رقيقة، تبدو خلفها ظلال مقتنياتك الخاصة، في تكوراتها ومنعرجاتها ومنحنياتها!

كنت أجدك في كل شيء!! في دمي.. نبضي.. أنفاسي.. كل كل

خلاياي مسكونة بك!! هل أنني واضحة أكثر مما يجب؟!! لأنني لا أخفي مشاعري نحوك، بكل جنونها وانتهاكها لأعراف القبيلة؟!

وهل يمكن أن يخضع وضعي لمقاييس الخفة والثقل، على طريقة جدتي؟ وهل يمكن أن تحتمل أعصابي المزيد من المواربة؟ هل أستطيع أن أراوغك، وفقًا لقوانين لعبة الصياد والفريسة؟ لعبة الرجل والمرأة التاريخية! منذ قرر آدم اصطياد حواء!!

لا.. أشعر أنني لا أستطيع إلا أن أعيش كل إحساسي بك، كمعركة أحتاج فيها كل صدقي، وجرأتي، لأهزم واقعًا هشًا.. محاطًا بالفراغ!

واقعًا استمد صلفه من الخرس والسكون.. من البله والتجمد.. واقعًا حاربته دومًا، بقدرتي على التعري أمام نفسي.. بقدرتي على الانسلاخ من كل الأكاذيب. وفوق ذا وذا، أحاربه الآن. بالقدرة على الحب، رغم كل المتاريس.. فتلك إرادتي.. أن ألتقيك.. أن أكون معك.. بك.. ولك وحدك.. أحبك يا رجلًا يشاركني ربيع أحلامي!

قل لي إنك لن ترهقني بالتبرير، وإنك الوحيد الذي يفهمني، في عالم ينتهج البربرية.. أشعر الآن أنني بحاجة لأن أنغمس فيك حتى أذني. علّ عاطفتي تطفئ عقلي قليلًا.. وعلّ حلمي يختزل الشجون. وعلّ واقعي يعتزل الشحوب، فيمسي قزحيًا يشع بألوان زاهية!

أشعر أنني أحتاجك الآن، الآن.. أحتاج أن أغوص في دهاليز

مدنك.. أن أتوغل في استوائية طقسك، المشبع بأريج هواء بلادي.. أحتاج أن أشبع بك شوقي لكل تفاصيلي هناك!

يا رجلًا ينضو عني، وحشة السكون ويبعث في الحياة.. يثير تمردي على التسلط!

سأصير بك على طريقتي، هتلر وموسوليني وستالين.. سأصير بك على طريقتي، الفاشية والنازية والتتار المغول.. وساتوحش بك ضد كل حراس الظلام.. وسأقتل بك الفجيعة.. فهل تطفئ توقد حزني؟ هل تسكت أزيز عقلي؟ طنين هذه الأفكار السوداء؟ هل تملأ فراغ روحي؟!

سأصير بك يا حبيبي أرشميدس، أصيح: وجدتك.. لا رجل إلا أنت، وأطفو في بحار متناهية المدى والعمق.. ولن أغرق.. لن أغرق إلا في بحارك أنت.. فهل تمهد وعورة جبالي.. ووهاد تضاريسي؟

هل تأخذني من نفسي، من غدي ومن أمسي؟ وتغيب بي في غياهب الواق واق البعيدة؟

ها قد فعلت.. ولا أدري لم تطُف بذاكرتي، صورة حبيبات المطر المتكورة، على زجاج نافذة السيارة، والمعتزمة الانتحار في إقدام.. دونًا عن صورة تلك المترددة.. الانتحار حبًا!

الرياض

يناير ٢٠٠٤

هامش:

* كل هذه النصوص نشرت في مجلة كتابات سودانية التي يصدرها مركز الدراسات السودانية، ومجلة الثقافة الجديدة المصرية، وعدد من المواقع الإلكترونية العربية. في الفترة بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥.

(٥)

منال الناقدة

المرأة والإبداع النسوي في السودان*

منذ أربعينيات القرن الماضي. أخذ الصوت النسوي في الكتابة الإبداعية، يعلو ويرتفع، محاولًا أن يفسح لنفسه موطئًا، إزاء هيمنة الرجل على مشهد الكتابة. ومثلت قصة ملكة الدار محمد عبد الله، التي فازت بالمرتبة الأولى، في المسابقة التي أجرتها إذاعة أم درمان سنة ١٩٤٧نقطة البداية لانطلاق المرأة السودانية الكاتبة.

لقد ارتبطت المرأة في السودان، إلى وقت طويل بالشعر، فنجد أن الشعر الشعبي الذي كانت تلقيه (الحكامات) ظل يؤدي دور التعبئة العامة، لطاقات المجتمع البسيط، بأنشطته المختلفة، وبهذا المعنى مثلت الشاعرة الشعبية (الحكامة) في ذلك الوقت دور جهاز الإعلام.

ولذلك في مسيرة الإبداع النسوى الطويلة، مثل اهتمام المرأة في السودان بمجال الكتابة القصصية، واحدة من حلقات اتصالها، بإبداع المرأة السودانية، في مجال السياسة والاقتصاد والمجتمع!

ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي (ذروة معركة المرأة في سبيل حقها في التعليم) وحتى الآن، خاضت المرأة في السودان، صراعًا قاسيًا ومريرًا، انعكس على كتاباتها. التي تجلت عن إنسانة مقهورة، في عالم قاهر، يهيمن عليه الرجال.

وظلت كتابة المرأة أحد أهم التعبيرات، عن نضالها منذ الأربعينيات عبر (الاتحاد النسائي) و(جمعية المرشدات)، حيث أنتج الواقع الصراعي، الذي ظلت تعيشه المرأة، أسماء لامعة مثل فاطمة عبد الرحمن، التي كانت تنشر إنتاجها الأدبي والفكري في (مجلة الفجر)، التي كانت تصدر في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي.

يقول الأستاذ معاوية البلال، بالإحالة لمنير صالح عبد القادر: إنه بتكوين الاتحاد النسائي وجمعية نهضة المرأة، وجدت الفتيات فرصة مواتية للتعبير، وإبداء الرأي في شتى المواضيع في الصحف، التي آزرت النهضة وشجعتها، وأفسحت لهن مجال النشر، على اقتضاب للمطالبة بحقوقهن، ولمعالجة المواضيع الإصلاحية، التي تتعلق بهن والرد على أولئك الذين رأوا في نهضة المرأة، وتكوين اتحادها وخروجها للمجتمع مع الرجل، نكسة أخلاقية ضارة!

وقد أفرز الصراع بين قوى التقدم، التي تساند المرأة، وقوى التخلف التي تقف ضد نيل المرأة لحقوقها، أسماء بارزة في مجال الإبداع النسوي المكتوب، في تلك الفترة مثل الأستاذة آمال عباس العجب، التي عبرت

قصصها عن الأزمة الوجودية للمرأة، في المجتمع الذكوري المهيمن.

كذلك ظهرت القاصة آمنة أحمد يونس، في الخمسينيات وتميزت كتاباتها بالجرأة وتناول قضايا الحرية والتحرر. على مستوى الذات والجسد والآخر. وفي ذات الفترة ظهرت قامات أخرى، مثل القاصة بخيتة أمين مدني، التي ركزت على تناول القضايا الاجتماعية، والعلاقات الأسرية. وزينب عبد السلام المحبوب، التي عبرت قصصها، عن حوار الذات الآخر، والعالم المحيط بالبيئة الذكورية المتخلفة!

وضمن هذه الفترة أيضًا، نجد القاصة سلمى أحمد البشير، التي اهتمت بمعالجة موضوعات التشرد والحرمان.

ارتبطت الكتابة النسوية عمومًا في هذه الفترة، بالقضايا الاجتماعية والتطلعات المشروعة في التحرر والنهوض.

كما تلاحظ الوجود المهيمن، لشخصية المرأة المقهورة، كشخصية أساسية داخل النص القصصي، واقع عليها القهر التاريخي، وهي في حالة ضعف وانهيار. حيث أن الأنثى تكتب معاناتها من واقعها المرير، بشكل فيه كثير من الخصوصية.

ومنذ سبعينيات القرن الماضي. حيث تم تصعيد الخطاب التحرري، إلى أقصى حد ممكن، وعلى المستويات كافة. برزت أصوات تعبر عن ذلك، مثل عوضية يوسف، التي استطاعت تفجير الاسئلة الصعبة، التي احتقنها ذلك الخطاب. ما تبلور في كتابة الثمانينيات، خلال سلمى

الشيخ سلامة وسعاد عبد التام، وآمال حسين وفاطمة السنوسي، حيث تهجسن جميعهن بالخطاب التحرري الحداثي، انطلاقًا من مفهوم: أن المرأة تعيش نفيًا وجوديًا خاصًا بها؛ حين تعبر عن وجودها المنفي خلال الرمز – اللغة، فتنتج كتابة جذرية.

ومثلت فترة التسعينيات، وخواتيم القرن الماضي، وبدايات هذا القرن. خلاصة للتجربة الإنسانية للإبداع النسوي، في صراعه الطويل، للرد على القهر الوجودي العام، الذي تمارسه مجمل العلاقات الاجتماعية، والأخلاقية والنفسية والذكورية. على الرغم من هيمنة الخطاب الديني منذ ١٩٨٩

وضمن هذا السياق المقهور بالفكر الديني الظلامي، ولدت أصوات جديدة ككلتوم فضل الله، ورانيا مامون، واستيلا قاتيانو وكثيرات غيرهن..

ولكن تسلط الفكر الديني في هذه الفترة، انعكس على تراجع الخطاب التحرري، إذ تعرضت المرأة في هذه الفترة للقمع بمختلف أشكاله، التي حملتها آليات القمع الديني، ونجد تعبير ذلك عند مها الرشيد وكلتوم فضل الله وهدى الجزار وسارة يوسف وعواطف عوض الكريم، وعدد آخر كبير من المبدعات السودانيات، لا يمكن حصره في هذه العجالة!

إلى جانب هذه الأصوات في شمال السودان، نجد بروز أسماء

من جنوب السودان، في أوقات متأخرة من مسيرة الكتابة النسوية في الشمال، نظرًا للظروف الاستثنائية التي يعيشها جنوب السودان، على نحو خاص! كمنطقة حرب مستمرة. بسبب مشكلة الهوية، والتنوع الديني والتباين الحضاري والثقافي.

ومن الأسماء التي برزت، رغم هذه الظروف الاستثنائية للجنوب، القاصة أغنيس لوكودو وثريا فرح يعقوب واستيلا قاتيانو.. اللائي حملت كتاباتهن كل آلام وأشواق وأحزان المرأة الجنوبية الأرملة بسبب الحرب، والمشردة إثر غارات الجيش الحكومي، إلى آخره من قضايا معقدة اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا، تعانيها المرأة في الجنوب بصورة أكثر خصوصية من رصيفتها في الشمال!

نموذج (١) صوت شمالي:

الكمبو..

مها الرشيد

رائحة البخور البلدية تشتد، كلما توغلت في الداخل. الصغار يستقبلونك عراة، وقد تلونت وجوههم، بكل ما يوجد على وجه البسيطة.. ويحملون عيون براقة، تشبه إلى حد كبير عيون قط كبير فقد صغاره.

ويلعبون في فرح، غير عابئين بما يحدث. والنساء قد كشفن عن بعض أجسادهن، وهن يصنعن الخمور وقد اختلطت رائحتهن برائحة

الخمر. حتى تكاد تحس بأنك في مكان ما من جهنم!! والرجال في حالة نوم، فمنذ تباشير الصباح وبعضهم استسلم لنوم عميق!*

***

وأخيرًا عثرت قدماه على غرفة من الصفيح، بدلًا عن الكرتون والقش. فعلم أنها غرفة الزعيم. وقبل أن يدخل اعترض طريقه شخصان.. أشبه ما يكونان بالجان، في قصص الأطفال. أخبرهم عن هويته.. اسمه.. سبب زيارته..

سمحا له بالدخول.. فدخل..

كان الزعيم شاب في مقتبل العمر، فارع الطول، به بعض الوسامة، وقد ارتدى قطعة صغيرة من القماش، غطى بها أسفل جسده. وقميص شفاف من فوق، يعلن عن سخونة الجو!!

جلست بجانبه فتاتان لا يزيد عمرهما، عن أربعة عشر عامًا. كل واحدة تنافس الأخرى في جمالها الإفريقي.. حيا الزعيم بأدب وخوف خفي. دعاه الزعيم للجلوس وتناول المشروب، اعتذر عن الشرب لأنه يصلي..

تناقشا.. اتفقا على كل ما يريد أحدهما من الآخر.. وخرج وعلى فمه قد ارتسمت ابتسامة خبيثة!

بعد أسبوع.. كانت العربات الكبرى تنزل أشياء بحذر شديد.

كانت هذه الأشياء عبارة عن علب لبن.. بطاطين.. سجاير.. وبعض الأشياء الخاصة، والخاصة جدا بالزعيم!!

بعد الأسبوع الثاني حضر شخصان، تبدو الصرامة على وجهيهما وهما يحملان بعض الملفات والأوراق الرسمية.. أوقفوا أهل الكمبو صفًا بعد صف. وبدأ تسجيل الأسماء: مادوت.. جون.. ميرى.. أكول.. فليب.. ديم.. وهكذا.. حتى ظهرت نتيجة الانتخابات، وفاز ذلك الزائر، مرشحًا عن الدائرة ٣١ التي يقع الكمبو على أطرافها..

مضى أسبوع وأسبوع آخر.. ولم يحدث تغيير في الكمبو.. نفذ اللبن والسجائر، ولم يأت أمر باعتبار الكمبو سكن رسمي*.

***

في غرفة الزعيم يتم نقاش حاد. أسفر عن خروج الزعيم، متجهًا إلى مسكن في أرقى أحياء العاصمة القديمة، حيث يسكن ذلك الزائر. قابله الزعيم، وقد بدى أكثر بدانة من ذي قبل!! أفرغ الزعيم كل ما في جعبته من غضب، ثم خرج وهو يحمل الوعود والآمال!

وبعد أسبوع فقط، صدر أمر إلى سكان الكمبو، باعتباره سكنا عشوائيا ياوى اللصوص، ومنطقة لصنع الخمر البلدي، ما يحتم حرق الكمبو!

في ذلك المساء توقفت العربة المرسيدس، التي تحمل رقم حكومي

أمام ذلك المبنى، ونزل السيد البدين يتمخطر، أو يتلقى التحايا.. فجأة ظهرت مجموعة من الرؤوس السوداء، وهي تحمل شقاء السنين في عيونها البراقة. هجمت على السيد البدين بمشاعلها، التي لوحت بها في وجهه، حتى أحرقته تماما.. صرخ بأعلى صوته.. أبعدهم.. أبعدهم.. وهو لا يزال يصرخ بأعلى صوته، وزوجته تحاول تهدئته. حتى أفاق من نومه!

نموذج (٢) صوت جنوبي:
زواج نابورو،
أجنيس لاكودو

اشتهر الزعيم مودي بتعدد زوجاته. كان الأكثر شهرة في هذا المجال. لدرجة أنه كان لا يستطيع التمييز، بين زوجاته الأصغر سنًا وبناته. ومع ذلك لم ينجب إلا من زوجته التاسعة. حيث رزق بطفلين، ولسوء حظه أن الطفل الأول توفي في الرابعة من عمره، وبقي له الطفل الثانى لادو.. عندما وصل لادو سن السابعة من العمر، قرر الزعيم إرساله إلى المدرسة، متوافقًا في ذلك مع رغبة السلطات الحكومية.. فعل ذلك رغم اعتراض مستشاريه، الذين كانوا يريدون، أن يقوم بتعليمه هو نفسه، حتى يكون صورة من والده، قالوا له:

«من سيكون الزعيم بعد مغادرتك هذه الدنيا؟ هل تعلم أن المدارس تفسد الأولاد؟ دعه يعيش معنا وسط أهله. ماذا سيفقد؟»..

ظلوا يناقشونه لعدة أيام. لكن مودي تمسك بموقفه، وهكذا أرسله إلى مدرسة الرحاب الأولية، وصحبه عدد من أولاد القرية. لكنهم جميعهم تركوا المدرسة، وعادوا إلى القرية بسبب صعوبة الحياة هناك.

استمر لادوا في دراسته رغم الصعوبات، ولم يفكر قط في الهروب من المدرسة، كان تلميذًا ذكيًا، مواظبًا في دروسه، وعندما جلس لامتحانات دخول المدارس الوسطى، كان في مقدمة الناجحين، ولذلك قبل حسب رغبته في مدرسة توريت الصناعية، وفي الإجازة السنوية عاد إلى أهله، وفي صباح اليوم التالي، اجتمع إلى أقرانه من أبناء القرية، وأخبرهم أنه يتطلع إلى رؤية نابورو ابنة جوي، تركها صغيرة لم تبرز نهودها في صدرها بعد، ويريد أن يرى الآن، ماذا حدث لها. بعد عام كامل من غيابه في المدرسة!

ضحك أقرانه وقالوا له:

«كنت بعيدًا في المدرسة، نابوروا هربت قبل شهر، مع شاب من إحدى القرى المجاورة لعزبة مانولا، البنات مثل نبات القرع المعروف بنموه السريع.. لقد كبرت البنت وهربت مع عشيقها. تركتك وحيدًا»..

ضحكوا عليه كثيرًا لأنه لم يصدق. كان يعتقد أنهم يسخرون منه. لا أكثر من ذلك، لذلك شاركهم الضحك. وفي النهاية اتفقوا على إرسال لرورو، قريبة صديقه العزيز، للتفاكر مع البنات.

في مساء نفس اليوم الأربعاء، حيث يجتمع الجميع في حلبة الرقص الأسبوعية، وبالتاكيد ستكون نابورا هناك!! في مكان الرقص. القريب

من منزلها!

أرسل لورو بنتا صغيرة للبحث عن كاكوا وإحضارها له. وكاكوا هذه من أسرة دوننق وصديقة حميمة لنابورو.

هوامش:

* دكتور. مختار عجوبة، القصة الحديثة في السودان، مركز الدراسات السودانية، الطبعة الثانية ٢٠٠٠

* دكتور. نصر الدين سليمان، دراسات في الفلكلور السوداني، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم ٢٠٠٦

* أوراق ندوة المرأة والإبداع في السودان مركز الدراسات السودانية، الطبعة الأولى ٢٠٠١

*معاوية البلال، كتابة الجنوب وجنوب الكتابة، المركز السوداني للثقافة والإعلام، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢

*معاوية البلال، نماذج من القصة القصيرة النسائية في السودان. «الأنثى كذات كاتبة والأنثى كموضوع للكتابة». المركز السوداني للثقافة والإعلام، القاهرة. الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

*مقالات متفرقة حول نشأة وتأسيس وأنشطة وتحديات الاتحاد النسائي السوداني.

(٦)

منال الباحثة الحقوقية

عرض لمخطوط كتاب أ/ أحمد ضحية

دارفور: التطهير العرقي والتهجير القسري

«حول جذور المشكلة وتفاعلاتها ومآلاتها»

هذا الكتاب، المخطوط، من الكتب المهمة، التي تسلط الضوء، على الأزمة الراهنة في دارفور. وهو كتاب تحت الطبع عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان*.

تناول فيه مؤلفه أ. أحمد ضحية جذور المشكلة، وتفاعلاتها ومآلاتها.. حيث ناقش في الفصل الأول راهن الأزمة الوطنية الشاملة وراهن أزمة دارفور، والبعد التاريخي لهذه الأزمة، مستعينًا بأبحاث عدد من الباحثين، العرب والأجانب حول السودان، باعتباره يمثل نموذجًا مصغرًا لإفريقيا، وباعتباره قد حظيَ بموقع متوسط في إفريقيا، ذات العوالم الثقافية المتعددة (أي إفريقيا- العربية، إفريقيا- الإفريقية، إفريقيا- المسلمة، إفريقيا- الديانات السماوية، إفريقيا الديانات- المحلية، إفريقيا- الناطقة باللغات-

العالمية، إفريقيا الناطقة باللغات- المحلية، إلخ)..

بحيث تعكس التغييرات أو التطورات، التي تجرى في السودان، ما يحدث في إفريقيا عموما بشكل من الأشكال، أو تأخذ أشباها منها، فالسودان يعكس إفريقيا بشكل ما. لكن السودان يتميز بفرادته وسط الأقطار الإفريقية، بمعنى أنه عربي وإفريقي في نفس الوقت.

وبينما تقدم التركيبة الداخلية للسكان السودانيين، نموذجًا مصغرًا لإفريقيا: طبيعيًا وثقافيًا وإثنيًا، فإن فرادته تواجه ذلك، بهامشيته السياسية المتعددة، بوصفه لا عربي، ولا إفريقي، ولا مسلم، ولا مسيحي!

وهذا يضع السودان داخليًا في وضع مربك وحرج جدًا، إذ ترغب نخبته المسيطرة، التي تنحدر غالبًا من الشمال العربي، أن يكون عربيًا ومسلمًا! وترغب نخبته غير العربية أن يكون إفريقيًا، وربما منبت عربيًا..

إن هاتين الرغبتين المتعارضتين، تقفان في قلب الصراع السياسي، الذي يكمن في مركز تحلل الدولة السودانية!

ولقد تطورت الأزمة التاريخية لدارفور في هذا السياق، بتضافر العديد من العوامل.

ويمضي المؤلف إلى القول، إن وقائع الوضع الكارثي في دارفور، تشير إلى أن أنماط العنف، الذي مورس ضد المدنيين، تؤكد نية الحكومة في السودان، إجبار السكان الأصليين، الذين ينتمون إلى قبائل غير عربية،

على مغادرة أراضيهم، وإحلال القبائل العربية محلهم. وهو ذات ما تمت محاولته بأشكال أخرى، من قبل في جنوب السودان.

ويمضي المؤلف للتأكيد بأن الحكومات المتعاقبة، لم تسعَ بصورة جادة، لحل متناقضات الواقع المأزوم، ما جعل إعادة تدوير الأزمة الوطنية، أمرًا ميكانيكيًا بين فترة وأخرى!

حيث يستعين المؤلف هنا بأطروحة د. شريف حرير، حول دولة الوسط، أو ما أسماه حرير بمثلث (الخرطوم، كوستي، سنار)، التي تقودها النخبة العربية الإسلامية، التي أنشأت استعمارًا محليًا، بعد خروج المستعمر الأجنبى في ١٩٥٦ والتي كان عمادها مجموعة صغيرة من البشر، إتخذت استراتيجية سياسية، قائمة على عنصرية بنائية، بمعنى «احتكار الممارسة السياسية» وإبعاد الآخر عنها، سيرًا على هدى الاستعمار، الذي أقر إلحاق البلد المستعمَر بالبلد المستعمر، أي أن الاستعمار عمل على إلغاء التاريخ، والثقافات الوطنية، وأسس للاستلاب الثقافي، وبذلك فإن الاستعمار الداخلي، لدولة الوسط والنخبة العربية الإسلامية، عمل على إلحاق أطراف السودان!

ولأن هذه الأطراف قد تم إلحاقها، فإن تاريخها وثقافتها قد تم إلغاؤها، كمجموعات ذات شخصيات ثقافية مكتملة! وتأسيسًا على ذلك، مضى نظام الجبهة الإسلامية في السودان، للتعبير عن منتهى أشواقه الاستعمارية، وشهوة الهيمنة، المستمدة من «عقلية النهب والسلب والغزو» البدوية!

وبدا ذلك واضحًا منذ الفترة الانتقالية (بعد انتفاضة مارس/ أبريل ١٩٨٥) فعناصر الجبهة الإسلامية في المجلس العسكري الانتقالي، مضت باتجاه تصعيد الحرب، في جنوب السودان.

وفي محاولة نظام الجبهة الإسلامية، الاستفادة من أخطاء تجربته مع جنوب السودان، لجأ إلى لعبة الاستقطاب العرقي في دارفور، فأحيا فكرة المليشيات القبلية، التي شكلت لأول مرة في ١٩٥٦ باسم «حراس الوطن».

فمثلما استخدمت النزاعات الدائمة، بين المجموعات الرعوية في الشمال والجنوب، سعت لاستخدام المجموعات الرعوية «العرب» في دارفور، ضد المجموعات الزراعية «الأفارقة»؛ ما أدى إلى حروب إثنية محلية!

ومستعينا «الباحث» بالإحالة، لعلي مزروعي وحلمي شعراوي يمضي إلى القول: إن نظام الجبهة الإسلامية في السودان، بينما أخذ يشعل الحروب الإثنية، مضى لإنشاء دولة أشبه بدولة المرابطين في المغرب، بمعنى فرض الإسلام السني بالقوة، دون الاهتمام بالأسئلة التي يطرحها الواقع!

ويناقش الباحث في الفصل الثاني (تراكم المشكلات وانفجار الأزمة) المشروع الإسلامي للجبهة الإسلامية، ودوره في الوضع الكارثي الذي وصلت إليه دارفور.

حيث يشير إلى أن دارفور، شهدت فترات ازدهار، تخللتها فترات خراب، نتيجة الصراع بين السلطة الحاكمة والخارجين عليها، وبسبب

القبائل المتناحرة، إلا أن خرابها كان دائمًا تاليًا لهزيمة السلطة الحاكمة، ابتداءً بخرابها إثر هزيمة السلطان إبراهيم قرض، على يد الزبير باشا رحمة في ١٨٧٤ وصولًا إلى الهزائم المتلاحقة حتى الآن.

ويركز الباحث في الفصل الثالث، على الصراع المسلح والحركات المسلحة في دارفور، كمظهر من مظاهر الفكرة الاستراتيجية، للجبهة الإسلامية الحاكمة في السودان.. الفكرة المضادة للديمقراطية وحقوق الإنسان.

فمن خصائص المجتمعات الشمولية، وبالذات النظرية النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، والستالينية في الاتحاد السوفياتي، إبان مجده.. رسوخ فكرة المجتمع / الأمة!

وهنا في السودان، نجد أن الجماعة الإسلامية، هي المجتمع أو الأمة.. فقد أسفرت هذه الفكرة عن نفسها، في محاولات إلغاء الإثنيات في السودان قسرًا «النوبة في جبال النوبة، المجموعات غير العربية في دارفور، المجموعات الإفريقية في جنوب النيل الأزرق، الشرق..» بواسطة آليات العنف الممنهج، والعنف وحده!

حيث يناقش المؤلف هنا في هذا الفصل، العنف الذي جابهت به الحكومة، المدنيين في دارفور، مستعينًا بالتقارير الإقليمية والدولية المختلفة، لناشطين ولمنظمات الأمم المتحدة، حول الوضع الإنسانى، منذ انفجار الصراع المسلح، لأول مرة في ١٩٩١ وحتى أغسطس الماضي

٢٠٠٤، موضحًا من خلال شهادات حية، مدى المجازر التي تم ارتكابها، من قبل نظام الجبهة الإسلامية، في سبيل مشروع المجتمع الأمة!

وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب، يناقش المؤلف من خلال وثيقة الاستقلال الثاني «نحو مبادرة للإصلاح السياسى في العالم العربي» الصادرة عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، حقوق القوميات والأقليات، في ما يتعلق بدارفور.

خالصًا إلى أن الأزمة ليست أزمة دارفور، وليست كما كانت تسمى دائمًا أزمة جنوب السودان، بل هي أزمة شاملة وطاحنة تتعلق بكل السودان، وأي قراءة خارج هذا السياق، هي قراءة زائفة بعيدة عن واقع الحال، وليس بمكنتها استقراء المآل.

لأنها تغفل التعقيدات الاجتماعية للسودان، وتتجاهل منحدراته ومرتفعاته الثقافية والإثنية.. وهي أزمة كما يقول دكتور منصور خالد، تجد امتدادها في صامت الخطاب الشمالي ومكبوتاته «خطاب الصفوة العربية الإسلامية» ما انعكس على كامل الجغرافيا، وأدى إلى هذه الحالة المريعة، من الحروبات التي تلد أخرى «الانكسار والتمزق والتشظي» بتعبير الباحث.

وإن مهمة العبور من هذه الحالة، التي تؤول بالسودان إلى التلاشي، بحدوده المعروفة قانونًا.. سودان الحروب والاضطرابات والتمزق، إلى سودان لا يتم عبر رومانسية جديدة لهي مهمة عسيرة.

وفي ختام هذا الكتاب، يقدم الباحث توصيات لحل أزمة دارفور، وفقًا لما ينص عليه القانون الإنساني الدولي والميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

القاهرة يناير ٢٠٠٥

هامش:

للأسف رغم (تمويله الكامل) الذي دفع نقدًا، تراجع مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، عن نشر هذا الكتاب، إثر تدخل محام سوداني (ديموقراطي) يساري مشهور، بزعمه أن الكتاب بلغته الحادة، يفاقم المشكلة، ولا يسهم في حلها، ومن ثم (نجر) كتابًا بديلًا، (للمفارقة) اعتمد فيه على معلومات وبعض تحليلات الكتاب المتهم بحدة اللغة؟!

ولذلك اكتفى الباحث بنشر الكتاب، على شبكة المعلومات الدولية، ولم يسع لطباعته، باعتباره ممولًا من جهة اعتبارية، استشارية للأمم المتحدة، هي مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

(٧)

الاغتصاب والعنف الجنسي

سلاحًا في الحرب - دارفور نموذجًا

العواقب المترتبة على العنف الجنسي الممارس في دارفور:

هناك عواقب عديدة للاغتصاب، تترتب عليها آثار فورية، وأخرى بعيدة المدى، تتجاوز الانتهاك المادي الفعلي، الذي يتمثل في:

(١) وصمة العار والنبذ:

يشكل الاغتصاب في حد ذاته، انتهاكًا شنيعًا لحقوق الإنسان، لكن من المحتمل أن تتعرض الناجيات، لمزيد من الألم، بسبب النبذ، ووصمة العار، المرتبطين بالاغتصاب.

(٢) الحمل نتيجة الاغتصاب:

يحتمل أن تتعرض النساء، اللواتي تعرضن للحمل، بسبب الاغتصاب، لمزيد من انتهاك حقوقهن.. فالطفل الناتج يعد طفلًا للعدو

(الجنجويد).. فقد يتعرضن هن وأطفالهن للنبذ من مجتمعاتهن بسبب ذلك، والاحتمال الأكبر، هو أن تتعرض النساء المتزوجات الناجيات من الاغتصاب، للرفض من أزواجهن. وقد يشعرن بأنهن مكرهات على التخلي عن الطفل، الذي ولد رغما عن رغبتهن، ويواجهن اتخاذ قرار آخر يسبب لهن الصدمة!

وبالنسبة للعديد من الرجال، الموجودين في مخيمات اللاجئين، فإن انتهاك حقوق الإنسان، المتمثل في الاغتصاب، يترجم مباشرة كما يبدو، إلى إزلال لهم وللجماعة، التي ينتمون إليها.

ويبدو أن هناك اعتقادًا ثقافيًا سائدًا، أن المرأة لا يمكن أن تحمل بسبب الاغتصاب فقط، فهو وضع قسري، مما يدفع ببعض الناجيات، اللائي حملن، إلى الهرب بعيدًا، حتى لا يلتقين أقاربهن!

عواقب اقتصادية واجتماعية مترتبة على النبذ:

تترتب على وصمة العار، التي تلحق بالنساء الناجيات، من الاغتصاب. عواقب وخيمة، هي أن يتبرأ أزواجهن منهن، رغم أن هذا لا يحدث دائمًا.

والفتيات اللواتي تعرضن للاغتصاب، قد لا يتمكن أبدًا من الزواج، لأن وصمة العار قد لحقت بهن، أو لأنهن يعتبرن فاسدات من قبل مجتمعاتهن!

والنساء اللواتي تخلى عنهن أزواجهن، أو اللواتي لا يتمكن من الزواج، لتعرضهن للاغتصاب، سيصبحن وبخاصة في الإطار الاجتماعي لدارفور، أكثر ضعفًا من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، فلن يستطعن التمتع بالدعم الذي يقدمه الرجال تقليديًا، أو «الحماية» التي يفترض أن يقدمها الرجال للنساء!

فإذا كان لهؤلاء النساء أطفال، أو كن حوامل نتيجة للاغتصاب، فقد يصبحن المعيلات الوحيدات لأطفالهن.

المشاكل الطبية ومشاكل الصحة العقلية:

النساء اللواتي تعرضن للاعتداء والاغتصاب، غالبًا ما يصبن بجروح جسدية، فالعنف سواء أكان جنسيًا أو لا، يمكن أن تترتب عليه عواقب خطيرة، على النظام التناسلي للنساء.

والعنف الجسدي أو النفسي المصاحب للاغتصاب، الذي يمارس ضد النساء الحوامل، يمكن أن يتسبب لهن بالإجهاض المتكرر، مما يعرضهن للنبذ، من قبل أزواجهن باعتبارهن لا يؤدين دورهن: كـ «منجبات»!

ونظرًا لكون الاغتصاب من المحرمات الاجتماعية، تسكت النساء عن إبلاغ الأطباء، في مخيمات اللاجئين عن الجروح الناجمة عن الاغتصاب مما يزيد تعرضهن للمضاعفات!

والنساء اللواتي تعرضن للحمل، نتيجة الاغتصاب، غالبًا ما يعانين من مضاعفات ما قبل الولادة، وخلالها وبعدها! بسبب الجروح الجسدية الناتجة عن الاعتداء!

وعند الوضع تتعرض النساء اللواتي اغتصبن، للناسور.. ويحدث الناسور، عندما يتمزق الجدار الفاصل بين المهبل والمثانة.. فتفقد النساء السيطرة على وظائف المثانة أو المصران، وتصبح معزولة نتيجة للإصابة بسلس البول!

حتى إذا لم تصب النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب، بجروح جسدية بليغة نتيجة ذلك. فإن الغياب الواضح لمنتجات الصحة والنظافة الشخصية، في إطار النقص في الإغاثة المادية في (دارفور أو تشاد)، يسهم في خطر حدوث عدوى.

إلى جانب ذلك ستعاني معظم النساء، من مشاكل نفسية خطيرة، حيث سيتعين عليهن حمل وتربية طفل غير مرغوب فيه، والمعاناة من وصمة العار الاجتماعية وانعدام دعم المجتمع لها!

في غرب السودان، تنتشر عادة تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية «الختان الفرعوني»؛ مما يزيد من خطر حدوث جروح خلال الاغتصاب، وبالتالي من خطر الإصابة بفيروس الأيدز، والأمراض الجنسية الأخرى، مع عدم وجود مرافق طبية كافية، لتقديم رعاية طبية شاملة.

الأطفال كضحايا للنزاع والآثار المترتبة على النساء:

الأطفال كذلك، ضحايا للانتهاكات الهائلة، لحقوق الإنسان التي وقعت في دارفور، حيث تتحمل النساء المسؤولية الرئيسية، لرعاية الأطفال، وبالتالي فإن انتهاكات حقوق الإنسان، المرتكبة ضد الأطفال، قد أصابت النساء بصدمات مؤلمة، فالعديد منهن شعرن بالذنب، لأنهن لم يستطعن حماية أطفالهن بصورة أفضل.

ويعاني الأطفال أيضًا، عندما تُقتل أمهاتهم أو آباؤهم أو ينفصلون عن العائلة نتيجة النزاع. وغالبًا ما تتولى قريبات الأمهات اللواتي قتلن، أو يتولى الأفراد الإناث في المجتمع ذاته، مسؤولية رعاية هؤلاء الأطفال.

وهذا بدوره يزيد من العبء، الذي تتحمله النساء المهجرات، اللواتي اضطررن إلى القيام بدور إضافي في رعاية الأطفال المصحوبين بالكبار، أو المنفصلين عن ذويهم!

(٣) المزيد من خطر العنف الممارس ضد النساء، خلال فرارهن وفي سياق التهجير:

النساء والأطفال هم الأشد تضررًا، جسديًا ونفسيًا خلال الهروب، ونتيجة التهجير القسري. وخلال الهروب، كانت النساء بوصفهن المسؤولات الأساسيات عن رعاية الأطفال، مسؤولات عن بقاء عائليهن على قيد الحياة، والأطفال هم الأكثر عرضة للإصابة بالأمراض، والإنهاك

أثناء الهرب، كما يمكن أن يضيعوا أو ينفصلوا عن عائلاتهم.

ويزيد ضعف الأطفال من خطر وقوع المزيد من الانتهاكات لحقوق أمهاتهن، أو الإناث المسؤولات عن رعايتهن، لأنه يمكن أن يجعل البحث عن السلامة أطول، أو يمكن أن يزيد من تعرض المجموعة العائلية للخطر.

الآثار بعيدة المدى للعنف ضد المرأة:

الزيجات المبكرة:

لوحظ في بعض المخيمات الواقعة (شرق تشاد)، انخفاض كبير في مهر العروس، وقد حدثت هذه الظاهرة في سياق نزاعات أخرى، إذ يخشى الأهل – نظرًا لوجودهم في مخيمات لاجئين – أنه سيستحيل عليهم السيطرة على بناتهم، لذا يسعون لتزويجهن على عجل، لإنقاذ شرفهن وشرف العائلي.

والزيجات المبكرة، تشكل بحد ذاتها انتهاكًا لحقوق الأطفال، وعلاوة على ذلك، فإن الفتيات اللواتي يتزوجن في سن مبكرة، يواجهن احتمالاً أقل في التمتع بحقهن في التعليم، واحتمالاً أكبر، في التعرض لمشاكل طبية ونفسية، في حال حدوث حمل مبكر.

وغالبًا ما تسبق هذا الزواج، مباحثات مطولة بين العائلتين، لذا يمكن أن يشكل آلية، تمارس العائلتان عبرها، درجة معينة من السيطرة على طرفي الزواج، وأن انهيار هذه الآلية، الذي أشارت إليه جزئيًا، زيادة

في الزيجات المبكرة، يشكل عاملًا ضاغطًا على أمن النساء، والفتيات اللواتي يقدمن على زيجات، يتم الاتفاق عليها على عجل.

وقد يتم تدبير الزيجات المبكرة، في سياق مخيمات اللاجئين بصورة متسرعة، وربما تعرض الفتيات لخطر الأزواج السيئين!

(٢) العائلات التي تترأسها الإناث:

تصير معظم العائلات، التي تعيلها النساء، لا دخل لها كغيرها من العائلات، التي تقيم في مخيمات، أو التي بها رجال. فإذا كان عدة أشخاص مسؤولين عن العائلة، يمكنهم اقتسام فرص العمل ومهامه، إذ يمكن لشخص أن يقف في طابور الأغذية، وآخر يجلب الماء، وثالث يرعى الجرحى والمرضى من كبار العائلة. أما العائلة التي تترأسها النساء، يستحيل عليها أن تؤدي كل هذه الأدوار مجتمعة.

وفي إطار الموارد الشحيحة، وانعدام الأمن الغذائي. تتعرض أيضًا النساء اللواتي ليس لديهن أزواج، للأذى والاستغلال. ويزداد احتمال تعرضهن وأطفالهن لسوء التغذية، ويقل احتمال تحصيلهن التعليم، وغالبًا ما تجبر هؤلاء النسوة، أو بناتهن على ممارسة الدعارة للبقاء.

العسكرة المحتملة للمخيمات:

هناك قلق آخر، أكثر عمومية، من إمكانية تعرض النساء لمزيد من

العنف، إذا استمر النزاع في دارفور بالتفاقم.

في مواقف مماثلة، ولا سيما في سياق الحرب، التي دارت رحاها في جنوب السودان، أجبرت النساء على دعم الكفاح المسلح، لتقديم أطفالهن كمقاتلين، وأجبرن على تزويد القوات المسلحة بالطعام والمأوى، وغالبًا ما اضطررن، إلى تقديم معلومات حساسة، لأغراض عسكرية.

وكل هذا وضعهن في موقف، لم يكسبن منه أي سلطة رسمية أو غير رسمية، في عملية صنع القرار، لكنهن اعتُبرن أعداءً، أو مخاطر أمنية، من جانب الطرف الآخر في النزاع.

ونادرًا ما شاركت النساء مشاركة نشطة، في النزاعات المسلحة. ولكن في حالات عديدة استُخدمن كأهداف في العمليات العسكرية، واستُخدمت مخيمات اللاجئين، في النزاعات الإقليمية الأخرى كقواعد إمداد للمقاتلين، واستخدمت الجماعات المسلحة المعونات الغذائية، أحيانًا لممارسة الضغط على جهات أخرى، مشاركة في النزاع.

وقد نبه تقرير لمنظمة العفو الدولية، إلى ضرورة أن تتنبه، المفوضية العليا لشؤون اللاجئين، والهيئات الإنسانية العاملة في مخيمات اللاجئين، والمهجرين داخليًا، بإمكانية العسكرة، التي قد تسبب انتهاكات لحقوق الإنسان، بما فيها انتهاك حقوق المرأة!

القاهرة ٢٠٠٥

هوامش

- تقارير وشهادات حية حول ما يجري في دارفور:
- تقارير منظمة الأمم المتحدة.
- تقارير منظمة العفو الدولية.
- تقارير منظمة أطباء بلا حدود.
- نشرات مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

(٨)

المرأة والإسلام السياسي

لقد ظلت المرأة السودانية، ومنذ وقت بعيد، تتطلع دوما لنيل كافة حقوقها. وظلت الحرية، تمثل قاعدة أساسية لهذه الحقوق. فالحرية هي الأساس، الذي تقوم عليه نهضة الأمم. ونهضة الأمم ترتبط عبر التاريخ، بمدى التقدم في مجال حريات وحقوق المرأة.

ومنذ لحظة باكرة في تاريخ الإبداع السوداني المكتوب. كانت المرأة صاحبة قدح معلى. إذ كتبت ملكة الدار محمد عبد الله روايتها (الفراغ العريض)، التي شرحت فيها الانتهاكات البالغة، التي تتعرض لها المرأة، في مجتمع ذكوري متخلف، مثل المجتمع السوداني. الذي تحكمه العادات والتقاليد البالية! والتي كان الغرض الأساسي منها. إبقاء الرجل مهيمنًا على جسد المرأة وحياتها!

ومنذ تلك الفترة (الخمسينيات) حتى الآن، ظلت المرأة في السودان تناضل، في سبيل انتزاع حقوقها. زادها في مسيرة نضالها الشاق، ما اختطه الأستاذ بابكر بدري، رائد تعليم المرأة في السودان منذ ١٩١٠.

فقد استوعب الأستاذ بدري مبكرًا، أن حصول المرأة على حقوقها،

مدخله الأساسي حصولها على حقها في التعليم، ومثل نضال المرأة، لأجل الحصول على هذا الحق، القاعدة التي انطلقت منها المرأة السودانية، في مسيرتها النضالية الطويلة، لنيل حريتها وحقوقها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وشهدت العهود الديموقراطية في السودان (٥٦- ١٩٥٨)، (٦٤-١٩٦٩)، (٨٥-١٩٨٩) نموًا وازدهارًا في مجال الوعي بقضايا المرأة. خلال ما بذله الاتحاد النسائي السوداني من مجهودات وتضحيات، حقق خلالها مكاسب كبيرة للمرأة السودانية.

زاده في ذلك ما استلهمه من نضالات المرأة السودانية منذ (الكنداكة) في النوبة القديمة قبل الميلاد، مرورًا بـ (مهيرة) و(بنونة) (إبان الاستعمار التركي المصري حتى القرن التاسع عشر) إلى آخره من العلامات البارزة في مسيرة المرأة، التي سجلتها مختلف المواقف التاريخية، بوقائعها وأحداثها المشرقة!

ولكن كانت كل هذه المكاسب تتراجع، إثر كل انقلاب عسكري، أو نظام شمولي! إذ أفقدت الانقلابات العسكرية في السودان، المرأة ما اكتسبته خلال تاريخ طويل من النضال. بما أحدثته هذه الانقلابات من تغييرات، في الدستور والقانون. حيث تصير المرأة هي أول ضحايا التغييرات الدستورية والقانونية، المنسوبة زيفًا إلى الدستور والقانون، في الوقت الذي لا تمت إلى ذلك بصلة!

وبمجيء حكومة الجبهة الإسلامية، إلى الحكم في السودان بعد انقلابها

الدموي في ١٩٨٩. تراجعت حقوق المرأة بصورة لم تحدث طوال تاريخ المراة في السودان.

إذ مرت المرأة في هذه الفترة، بأسوأ وأقسى مراحل تجربتها. في مقاومة الاستبداد الذكوري، والانتهاكات والاغتصاب باسم الدين، إثر التغييرات الجذرية، التي أحدثتها حكومة الجبهة الإسلامية في الدستور. وما أشعلته من حروب، كانت النساء أولى ضحاياها! وبما ابتدعته من صيغة ظلامية، أسمتها بالدستور الإسلامي، الذي تحت طائلته مورست كافة الانتهاكات ضد المرأة.

وفي حقيقة الأمر المعاش، أن الجماعات المنسوبة إلى الإسلام، العديد من قياداتها في السودان. تورطوا في العديد من القضايا الأخلاقية ضد المرأة، وهو ما نشرت عنه الصحف السودانية في الفترة من ٨٦-١٩٨٩ حتى لم يبق أمام هذه الجماعات، إلا الانقلاب، لدرء سوءاتها التي صارت واضحة للعيان، وتجري أخبارها على كل لسان!

والذي تابع صحيفة الوطن السودانية في تلك الفترة، التي سبقت الانقلاب الإسلامي، يدهشه مدى الانحطاط الأخلاقي للقيادات المنسوبة إلى الإسلام.

كانت صحيفة الوطن، التي يملكها ويرأس تحريرها الأستاذ سيد أحمد خليفة، متخصصة في ذلك الوقت، في نشر الانحرافات الأخلاقية لتنظيم الجبهة الإسلامية! التي لم تتوقف عند حد سرقة الأموال العامة، أو التلاعب في موارد الشعب، إذ تعدت ذلك إلى الفضائح الجنسية والمثلية الجنسية!

وعبرت هذه الانحرافات، عن حقيقة الوعي الجنسي المريض، المهيمن على المنسوبين إلى الإسلام.

الأمر الذي يجعلهم مهمومين ومهجسين، بحصار المرأة، وخنقها فقط لإرضاء غرائزهم، ورغباتهم المريضة. وهو ما دفعهم في السودان، إلى تفويج الشباب اليافعين، إلى مناطق الحرب. بعد خداعهم بأنهم سيحصلون على (الحور العين) بعد أن يموتوا.

والملاحظ أن عبارة «الحور العين» ظلت تتردد كثيرًا، طوال فترة حكم الجبهة الإسلامية، على وسائل الإعلام المختلفة، والخطب الجماهيرية، التي استهدف بها الشباب المراهق، الذي لا تجربة له بحكم صغر السن.

ما يؤكد مدى الهاجس الجنسي، الذي يهيمن على قادة المشروع، المنسوب إلى الإسلام في السودان. فلا أحد من هؤلاء «المجاهدين» يريد أن يموت لأجل رؤية وجه النبي الكريم مثلًا. فكل حلمه وهدفه الذي يموت من أجله، هو الحصول على الحور العين والغلمان؟! ليحقق رغباته المريضة بصورة ميتافيزيقية! بعد أن فشل في تحقيقها على المستوى الفيزيقي؟! وهذا مبحث جدير بأن يلتفت إليه علماء النفس والاجتماع لدراسته بصورة عميقة!

القاهرة ٢٠٠٤

(٩)

المرأة والقهر الاجتماعي

تعرضت المرأة لانتهاكات بالغة، في ظل نظام الجبهة الإسلامية، التي سخرت جنودها في مناطق الحرب، لاغتصاب النساء والفتيات القاصرات، كما مارست الأجهزة المدعوة (بالنظام العام) (والشرطة الشعبية)، انتهاكات لاتصدق ضد طالبات الجامعات وتلميذات المدارس.

ويمكننا الجزم، بأن الإسلام السياسي في السودان، نجح بصورة منظمة، في تحويل المرأة إلى أرملة، بعد تيتيمه لأطفالها. وما خلقه من وضع اقتصادي متردٍّ، كذلك أدى إلى أن تفقد المرأة كرامتها وكبريائها. في سبيل الحصول على لقمة العيش.

كما مزق الأسرة السودانية شر ممزق، واضهد المرأة لأقصى حد يمكن تصوره، باستغلالها جنسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، وتحويلها لساعة! الأمر الذي خلق الكثير من الظواهر السالبة، التي لم تكن موجودة في المجتمع السوداني!

تعاني الأنثى في كثير من المجتمعات السودانية، من قهر اجتماعي،

توضع لبناته الأساسية منذ نشأتها الأولى، في أسرتها.

فمنذ الطفولة الباكرة، يبدأ تمييزها عن أخواتها الذكور، وحتى عندما تكون في رحم الغيب.. لم تولد بعد. يتمنى الأب أن يأتي مولوده ذكرا!! وبينما يكون لإخوتها الذكور، مطلق الحرية في اللهو الطفولي البريء، تبدأ محاصرتها هي بالأوامر والنواهي، التي تحد من حركتها وسلوكها العفوي! كما يتم التعامل معها بالعنف، لدى أقل هفوة. بينما يحدث العكس تمامًا مع الذكور.

فالأب لا يحب أن يربي نزعة الخوف، في أبنائه الذكور بالضرب.. بينما يحرص على تربية وتغذية هذه الغريزة، في البنت. فهي عار مؤجل!!

فعندما يولد ذكر يتباهى به الأب، باعتبار أن الذكر سند له في المستقبل، ولا تخرج من فمه عند ولادة أنثى، سوى عبارات الدعاء، التي يبتهل بها إلى الله، بأن يجعل هذه البنت من الصالحات؟!

فافتراض الأسرة دائمًا، أن البنت مجلبة للعار، وأن الولد مصدر قوة وسند، تدحضه الظروف الاقتصادية والاجتماعية، التي مر بها السودان. إذ أن المرأة الآن تعول الكثير من الأسر، سواء أكانت أسرتها هي، نسبة لظروف زوجها أو وفاته أو حتى هربه من المسؤولية!

أو أسرتها أبويها وإخوتها الصغار، بعد تدهور أوضاع والدها أو وفاته، وتَخلِّي أشقائها الذكور عن مسؤولياتهم، تجاه الأسرة.

فالمرأة اليوم في السودان، مسؤولة عمليًا عن مهام كان يؤديها الرجل، ولكن حتى الآن على الرغم من مسؤوليتها هذه، لم يتم الاعتراف بدورها في المجتمع، إذ لاتزال مقهورة.. على الرغم من المبدأ الحي، أن السائد اقتصاديًا هو السائد اجتماعيًا، إلا أننا نجد أن الرجل لا يزال في كل الأحوال، يمارس قهرًا عنيفًا على المرأة، حتى وهي تحمل عنه أعباءه؟!

التحولات العميقة، التي حدثت في المجتمع السوداني، بسبب الضغط الاقتصادي والاجتماعي، وهيمنة الفكر الديني، طوال السنوات الماضية، جعلت وضعية المرأة، تزداد سوءا. إذ أصبحت عرضة أكثر للاستغلال، بسبب الحاجة أو الخوف. ومع رياح التحولات، التي اكتسحت كل العالم (ثورة حقوق الإنسان والديموقراطية)، صار على المرأة في السودان، أن تتحرك بصورة أكثر فاعلية، لاستغلال هذا المناخ، لتحقيق مكتسبات لصالح المرأة، واسترداد حقوقها التي انتزعت منها، سواء بواسطة التشريعات، أو العادات والتقاليد البالية الرثة!

إذا كان ما قلناه على ضوء حياة المرأة، في شمال السودان. فإن المرأة في أجزاء أخرى من السودان، تعاني ما هو أسوأ..

ففي غرب السودان، نجدها تعمل في الزراعة والأعمال الشاقة، بينما لا يعمل الرجل شيئًا، بل يأخذ ثمرة عملها الشاق ومجهودها، ليتزوج به من أخرى، وربما ثالثة ورابعة.

وفي جنوب السودان، تعامل المرأة كما تعامل الحيوانات، بل الحيوانات تعامل بصورة أفضل في الجنوب، لأنها ترتبط بالنظرة الاجتماعية للحيوان (كلما زاد عدد الأبقار التي يمتلكها شخص ما، فهذا يعني أن سلطته على المجتمع زادت)، وغنى عن القول، الوضع البائس الذي تعيشه المرأة في شرق السودان، وجبال النوبة، وجنوب النيل الأزرق.

فعدم استقرار هذه المناطق، بسبب الحروب الأهلية، وعدم تنميتها، وتدني الوعي الاجتماعي العام. تضافر كل ذلك ليترتب عليه عدم وعي المرأة بحقوقها، ما جعلها تفتقر للوعي بحقوقها ووجودها نفسه كإنسان.

حيث ترتفع نسبة الأمية، إلى أعلى درجة يمكن تصورها، في هذه المناطق، وحيث تعمل العادات الضارة والتقاليد البالية، على تحجيم دور المرأة وإخضاعها، ما يجعلها تعيش النفي الوجودي ككائن إنساني، بصورة أكثر بشاعة مما تعيشه المرأة في الشمال.

إن المهمة الأساسية، التي يجب أن يلتفت إليها قادة المجتمع المدني، في السودان بعد إحلال السلام. هى جعل رفع القهر الاجتماعي عن كاهل المرأة، من أولوياتهم التي يجب أن تمضي في خط واحد، مع برامج التنمية والسلام.

فرد الاعتبار للمرأة بالتوعية والتعليم، وتعريفها بحقوقها. والدور المبدع، الذي يلعبه مفهوم الحرية وممارستها. والحرية كقيمة تفجير

للإبداع والخلق: يظل من الأساسيات، التي ينبغي الالتفات إليها. خاصة أن هذا القرن هو قرن المرأة، فالمرأة عانت لعهود طويلة من كافة أشكال القهر والظلم والتمييز، وآن الآوان، لمناهضة كافة أشكال التمييز ضدها. لتحصل على حقوقها كافة.

القاهرة ٢٠٠٦

(٨)
خاتمـــة

لقد اهتمت منال في قصصها القصيرة جدًا، بتصعيد الأزمة – في علاقة الرجل بالمرأة – إلى المستوى الاجتماعي. وجعلت من المشكلة العاطفية، مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى.

كما ركزت الضوء على الغربة النفسية والجسدية للمرأة، في مواجهة ظاهرة الاغتراب، وعلاقة الذات بالآخر.

وعلى عكس قاصات كثيرات، ركزت كتاباتهن على دور الجماعة، في التأثير على الفرد، نجد منال قد ركزت على فردانية الإنسان، وأثر ذلك في الجماعة.

وربما مبعث ذلك استخدامها للسرد الذاتي، وإسقاطات تجربتها الشخصية في الحياة، ونشاطها الفردي النازع للاستقلالية..

فراوي منال، دائمًا هو شخصية رئيسة في القصة، كما هو الحال في قصتيها غربة وحبيبات مطر.

كما اهتمت منال رغم قلة كتاباتها، بالدراسة المعمقة لمسيرة الإبداع

النسوي الطويلة، مثل اهتمام المرأة في السودان بمجال الكتابة القصصية، وما يتصل بذلك من مجالات السياسة والاقتصاد والمجتمع!

وكثيرا ما دارت بيننا حوارات مطولة، حول معارك المرأة، في سبيل حقها في التعليم، والعمل، والتوظيف والأجر المتساوي، والصراع القاسي والمرير، الذي خاضته المرأة السودانية، في سبيل الحصول على حقوقها.

اهتمت منال كذلك، بتتبع كتابة المرأة كتعبير أساسي، وأداة حاسمة، في أدوات نضالها منذ الأربعينيات عبر (الاتحاد النسائي) و(جمعية المرشدات)، وما أنتجه الواقع الصراعي، الذي ظلت تعيشه المرأة، من أسماء لامعة مثلت مصدر فخر لبنات جنسها.

ولطالما توقفت خططنا، وأحاديثنا المشتركة عند هذه اللوحة الجميلة المعقدة، التي تتكئ على برميل بارود، (وطننا السودان)، بحنيننا للعودة النهائية إليه.. هذه العودة التي لم يكتب لها أن تتحقق!

فرغم كل شيء كنا نراه معًا، كوطن فريد بين الأوطان، لم تُتح لفرادته التعبير عن نفسها، ليزول الظلم ويحل العدل بعد جور، وتأخذ فيه النساء ما يستحقن من حقوق..

كانت منال تحتج على أسئلة بعض الفورمات الرسمية، في ما يتعلق بالهوية (أميركي أبيض، إفريقي أميركي، لاتيني، الخ..) لاعتقادها العميق أن عليهم إدراج (سوداني) كواحدة من الهويات المستقلة بذاتها، ولتي لا تتبع لهوية أخرى!

وهو طرح قد سبقها إليه، بعض المفكرين السودانيين العقلاء كفرانسيس دينق، لتفادي الوضع المربك والحرج لهويتنا، التي وجدت نفسها، بين مطرقة العروبة وسندان الإفريقانية!

حلمت منال بسودان جميل، خال من الإسلام السياسي، ولو كانت على قيد الحياة، ليس لدي أدنى شك في أنها كانت ستكون، معتصمة بين أولئك الكنداكات، اللائي واجهن بجسارة، أجهزة القمع الإسلامي، في ميدان القيادة العامة.

فما حدث بمثابة أحد أحلامها، بأن تتجاوز المرأة الدور التقليدي كحكامة، إلى مواجهة الموت في الصفوف الأمامية. وأن تتولى زمام المبادرة، بدلًا عن الاكتفاء بالزغاريد، وأشعار الفخر والحماسة، التي يتصدرها أخو البنات وعشا البايتات، والأزرق كحل السراري!

فهي لم تعد في سور وداخل سور، محمية الحمى الما حام حداها دخيل، إذ صارت في خطوط المواجهة، تحمي زمارها بنفسها، وتقود التغيير إلى غد أفضل!

لا شك أن المشاركة الفاعلة للمرأة، في ثورة سبتمبر المجيدة، حققت أحد الأحلام الكبيرة لكل منالات السودان، وطرحت أسئلتهن الملحة، حول وضعهن الوجودي، ودورهن في خارطة العمل العام، ومستقبلهن الحقوقي. بعد أن حطمن أخيرًا أسوار المشروع، الذي وطأهن وسعى لإعادة إنتاجهن، بقوة الجهاز الأيديولوجي للإسلام السياسي،

ليخضعهن إلى إعادة صياغة كاملة، رغم أنف حقائق الواقع والتاريخ، وبطولات الكنداكات العظيمات، في ما يسبق الميلاد المسيحي!

لطالما تبادلنا الأفكار بيأس، حول هذا الذي نراه في وطننا، من تكيف أخضعت له المرأة، وجموع الشعب، بفعل البطش وشراء الذمم و»الممارسة السياسية اللا أخلاقية».

و.. ورحلت منال قبل أن تشهد، صوت بنات جنسها يعلو، على صوت الرجال، فيدك حصن الطاغية!

ولعمري أن منال في عليائها الآن تبتسم لكنداكات بلادها، وهن يشرئبن بعقائرهن، يغنين غدهن الأجمل!

أحمد ضحية
لانسينغ، ميتشيغان
مايو ٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2020/13355